كلية اللغة العربية بأسيوط

المجلة العلمية

_ _ _ _ _ _

رائيةُ ابنِ دَرَّاج القَسْطِلِّي ت ٤٢١هـ

دراسة بلاغية

إعداد

د/ دسوقي عبد المعز محمد محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد في كلية الدراسات الإسلامية والعربية بقنا

(العدد الواحد والثلاثون – الجزء الرابع ٢٠١٢م)

مقدمة

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، خير من نطق فبلّغ وأبلغ، وكان كما قال : " أنا أفصح العرب ... "(١) عليه وعلى آله وأصحابه وسلّم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ..

فإذا كان الشعر ديوان العرب(٢)، فإنَّ جوهر العمل البلاغي يتمثّل في تفقد الأبنية الشعرية، ودراستها دراسة بلاغية تذوقية ... وذلك لعظم منزلة الشعر في لغة العرب وبلاغتهم، إذ هو " معدن البلاغة وعليه المعوّل فيها "(٣).

وابن دراج الأندلسي شاعرنا" معدود في جملة العلماء، والمقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء، وشعره كثير يدل على علمه، وله طريقة في البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته"(٤) كما قال عنه ابن حزم القرطبي" لو قلت إنه لم يكن بصقع الأندلس أشعر من ابن دراج لم أبعد – كما قال عنه أيضا–"

---

(١) تمام الحديث : " بيد أنّي من قريش، واسترضعت في بني سعد بن بكر " . ينظر: الفائق في غريب الحديث للزمخشري – تحقيق : علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ١ ، ١١ ، دار المعرفة، لبنان،ط ٢ ،د. ت .

(٢) صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي – تحقيق : يوسف علي طويل، ١ ، ١٢٣ ،دار الفكر، دمشق ١٩٨٧ م .

(٣) كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني – تحقيق : محمد التنجي، ٢٤ ،بتصرف، دار الكتاب العربي، بيروت،ط ١ ،١٩٩٥ .

(٤) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر،لأبى عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي – تحقيق / محمد بن تاويت الطنجي :١١٠– ط القاهرة – ١٩٥٣م.

لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي"(١) ونختم القول في ابن دراج بقول الثعالبي: " كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ما ينظم ويقول".(٢)ومن ثمَّ تأتي قيمة هذه الدراسة "رائية ابن دراج القسطلي– دراسة بلاغية"، حيث اصطفت قصيدة من عيون شعره ، عرفت في دنيا الأدب بالرائية ، ولم تدرس هذه القصيدة دراسة بلاغية – فيما أعلم– من قبل، إلا أن هناك دراسة أدبية ونقدية لها من خلال معارضتها لقصيدة رائية لأبى نواس لأستاذنا الدكتور/ جلال صابر عوض محمد حجازي، سميت الدراسة بـ :" ابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد"(٣)، والحق أنى أفدت منها من خلال التعرف على ترجمة لحياة ابن دراج وشعره ، ومن خلال تقسيم القصيدة إلى عدة وقفات.هذا وقد حاولت دراسة تلك القصيدة دراسة بلاغية على سنن الدراسات البلاغية التطبيقية المبنية على المنهج البلاغي تحليلاً وتذوّقاً.

وبعد قراءة متأنية للقصيدة بدا أن للشاعر فيها ست وقفات، لذا اقتضت طبيعة البحث أن يكون في مقدمة، وتمهيد شمل عرض القصيدة، وستة مباحث، ثم خاتمة.

المقدمة : ذكرتُ فيها أهمية البحث وأهدافه، ومنهجه .

---

(١) الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم ، لأبى القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال – مراجعة /السيد عزت العطار الحسني : القسم الأول/٤٠ – ط القاهرة – ١٩٥٥م.

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي – تحقيق الشيخ/ محمد محيي الدين عبد الحميد :٤٣٨/١ – دار المعارف بمصر– ط سابعة ١٩٧٩م.

(٣) الدراسة نشرت بمجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – العدد الخامس عشر – ١٤١٧هـ – ١٩٩٧م.

التمهيد : وذكرت فيه نبذة عن حياة ابن دراج وشعره ، وبعضا من ملامح شعره .

المبحث الأول: مقدمة ذاتية (حوار بين الشاعر وزوجه حول السفر) الأبيات(١-٨) .

المبحث الثاني: وصف وتصوير مشهد وداع زوجه وطفله الرضيع الأبيات(٩-١٦) .

المبحث الثالث: وصف رحلته إلى الممدوح وما عاناه فيها الأبيات(١٧-٣٠) .

المبحث الرابع:مدح الشاعر المنصور بن عامر وقومه الأبيات(٣١-٤٤)

المبحث الخامس: تتويج الممدوح بأعماله المجيدة وبطولاته الفريدة.الأبيات(٤٥-٥٦) .

المبحث السادس: حديث الشاعر عن أبرز صفاته. الأبيات (٥٧-٦٥)

ثم أوردت في الخاتمة أهم النتائج، ثم ذكرتُ أهم مصادر البحث ومراجعه، ثم فهرسا للموضوعات. وعند تناولي القصيدة بالتحليل البلاغي، لم أغفل جانب السياق ولا المقام، فأبرزت المقاصد والدلالات، وأجليت خصوصيات المعاني وأحوالها عنده . وآمل أن يكون هذا البحث لبنة جديدة في صرح الدرس البلاغي التطبيقي القائم على تحليل الشعر العربي وتذوّقه.

" ... عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ "

والله وليّ التوفيق

تمهيد

نبذة عن حياة ابن دَرَّاج القَسْطَلِّي : حياته – شخصيته وأثرها في شعره :

اسمه وكنيته ولقبه :

هو أحمد بن محمد بن العاصي بن أحمد بن سليمان بن عيسى بن دراج ، وكنيته أبو عمرو ، ولقبه القسطلي نسبة إلى بلدة " قسطلة" وهى مدينة أندلسية من أعمال " جيان " بمنطقة وسط الأندلس ، وكان يطلق عليها " قسطلة دراج " نسبة إلى الجد الأعلى للشاعر حيث كان هذا الجد وبنوه الذين ينتمي إليهم شاعرنا يتداولون رئاسة هذه المدينة ، والقيام على شئونها" (١).

مولده ونشأته وعوامل تكوينه :

ولد ابن دراج سنة ٣٤٧هـ-٩٥٨م في " قسطلة دراج " ،في بيت عريق وأسرة ذات جاه عريض ، من أصل بربري يرجع بها إلى قبائل " صنهاجة " التي دخل عدد كبير منها الأندلس مع طارق بن زياد عند فتحه الأندلس سنة ٩٢هـ/٧١١م ولم تلبث هذه الأسرة البربرية الأصل أن اندمجت مع العناصر البشرية الأخرى التي كونت المجتمع الأندلسي حتى أصبحت في نهاية الأمر أندلسية خالصة لا يكاد يربطها بأصلها البربري السابق إلا مجرد النسب دون أدنى شعور بالانتماء إلى ذلك الأصل ولا سيما عند الأحفاد وبينهم الذين ولدوا في البيئة الأندلسية الجديدة كشاعرنا ابن دراج الذي كان يعد نفسه أندلسيا دون التفات منه إلى أصله الغابر مما حدا بمؤرخي الأندلس وعلمائها إلى أن يفاخروا به كأندلسي ، وهاهو ابن حزم والشَّقُنْدى يفاخران أهل المغرب بأن بلادهم لم تنجب شاعرا في مثل نبوغ ابن دراج الأندلسي ، مع علمهما بأصوله الصنهاجيَّة القديمة .

---

(١) المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي – تحقيق د/ شوقي ضيف :٦٠/٢- ط ثالثة – دار المعارف بمصر .

ولا يعرف شيء ذو بال عن طفولته وصباه وشيوخه الذين أخذ عنهم ، إذ لم يتعرض لنشأته من ترجموا له من القدامى ، وإن حاول بعض الدارسين المعاصرين أن يستنتج من شعره وتاريخ أسرته ما يسد هذا الفراغ الذي تركته المصادر القديمة فاستنتج الدكتور/ محمود على مكي محقق الديوان(١) أن ابن دراج بدأ حياته الدراسية تلميذا يتردد على مجالس الشيوخ وحلقاتهم في "جيان" ليتلقى ما يتلقاه أمثاله من الصبيان من حفظ للقرآن ، وإلمام بمبادئ النحو واللغة والأدب والأخبار والأنساب والفقه(٢).

كما استنتج الدكتور/ أحمد هيكل أنه " تزود منذ البداية بثقافة أدبية ولغوية وتاريخية موفورة ، وأنه اهتم بنوع خاص بأشعار الجاهليين والإسلاميين وفتن بنوع أخص بالشعر المحافظ الجديد الذي وصل إلى قمته في القرن الرابع الهجري حيث انتهت زعامته في المشرق إلى الشاعر الجهير أبى الطيب المتنبي ، وفي المغرب إلى الشاعر المجلجل ابن هانئ الأندلسي ، وأن من المؤكد أن ابن دراج قد أطال النظر في شعر هذين الشاعرين الكبيرين (٣) كما أن فترة التكوين الثقافي لشاعرنا كانت " هي الفترة التي جنت ثمار قدوم أبى على القالي على الأندلس ونقله إليها مجموعة ضخمة من دواوين الشعراء المشارقة الجاهليين والإسلاميين بالإضافة إلى

---

(١) ينظر مقدمة ديوان ابن دراج : ٣٦ ، نشر المكتب الإسلامي بدمشق – حررها الله من الطغاة– ط أولى ١٣٨١هـ ١٩٦١م

(٢) ينظر مقدمة الديوان :٣٦، وابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد / جلال صابر عوض حجازي:٢٣٠،٢٢٩بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة، العدد الخامس عشر / ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

(٣) انظر : كتابه دراسات أدبية :٢٤٦ وما بعدها – دار المعارف – ط أولى ١٩٨٠م، وانظر كذلك كتابه :الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة :٣٠٨ وما بعدها – دار المعارف – ط سابعة ١٩٧٩م.

كثير من كتب اللغة والأخبار، كما كانت هي الفترة التي هضمت وتمثلت آثار أبى تمام والبحتري التي أدخلها بعض نقلة آداب المشرق مثل أبى اليسر الرياضي ، وشهدت دخول ديوان المتنبي الأندلس على يد زكريا ابن الأشج فكان من عمد الثقافة الشعرية في فترة تكوين شاعرنا(١).

هذا وقد أفاد الشاعر من معطيات عصره وبيئته المزدهرة بالأدب واللغة والتاريخ ،فتفتحت موهبته ومارس قرض الشعر ، حتى إذا أحس بالتمكن من فنه والقدرة على حوكه وإبداعه تطلعت آماله إلى عاصمة المسلمين " قرطبة " التي كانت محورا يجتذب إليه كل من يأنس في نفسه اقتدارا في ميدان الأدب والشعر ولاسيما أن صاحب السلطان فيها آنذاك بل وفي الأندلس جميعا المنصور بن أبى عامر الحاجب (٢) المشهور كان معروفا بتقريبه للشعراء، وحدبه على الأدباء ، وإنشائه ديوانا لهم واتخاذهم ألسنة لتأكيد سلطانه وتسجيل أمجاده والإشادة بانتصاراته. وقد كان لكل حقبة من عصر الشاعر أثرها في حياته وفي أدبه فنشأته وتكوينه كانا في فترة ازدهار الخلافة أيام الناصر وابنه المستنصر حيث نهضة الثقافة الأندلسية ووصول الحضارة الإسلامية في تلك الربوع الأندلسية إلى ذروتها وقد انعكس ذلك بوضوح على فنه الأدبي .

أما تألق ابن دراج في عالم الشعر وبزوغ نجمه في أفقه فقد كان في فترة الحجابة أيام المنصور بن أبى عامر فقد استطاع شاعرنا بذكائه وتمكنه الفني والثقافي أن يحظى بإعجاب المنصور وثقته به وانقطع إليه ، وأخذ يصفيه أجمل شعره وأخلد قوافيه لا رغبة في عطائه فحسب بل إعجابا صادقا قويا ببطولته وانتصاراته في غزواته بعد أن وجد في المنصور البطل العربي المسلم على شبيه ما

(١) دراسات أدبية : ٢٤٦، وابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد: ٢٣٠،٢٣١.

(٢) الحاجب : وظيفة كبيرة في الأندلس تشبه وظيفة رئيس الوزارة.

وجد المتنبي في سيف الدولة ، فقد كان المنصور رمزا لمجد الإسلام في تلك البلاد ذلك المجد الذي لم يقدر للمسلمين أن يستعيدوه مرة أخرى طول تاريخهم في إسبانيا بعد انتثار سلك الدولة العامرية(١)

وكان لخصوص علاقته بالمنصور يصاحبه في بعض غزواته ليعايش تجارب النصر معايشة حقيقية ، وليصور المعارك من واقع الميدان ، وليلبس المنصور تيجان البطولة الحقيقية التي صارت حديث الشعب المسلم كله في الأندلس.

ومن هنا توثقت العلاقة بينه وبين أميره ، وأصبحت تتجاوز علاقة شاعر مؤمل في ممدوح كريم إلى علاقة رفيعة المستوى أساسها الإعجاب الملهم والتقدير الموحى حتى لقد حفظ لنا ديوانه اثنتين وثلاثين ما بين قطعة وقصيدة كلها في المنصور ، ولزم ابن دراج أميره إلى آخر حياة ذلك الأمير حتى توفي سنة ٣٩٢هـ وبقى الشاعر في خدمة الحاجب الجديد عبد الملك بن المنصور الملقب بالمظفر يسجل انتصاراته ، ويصور كبار الأحداث في عهده حتى سنة ٣٩٩هـ(٢)

ملامح شخصيته وأثرها في شعره :

أبرز ما يميز شخصية ابن دراج الأندلسي استقامته والتزامه بالأخلاق الإسلامية القويمة ، وبعده عن التحرر الذي كان يتورط فيه كثير من معاصريه ، فلا نجد في أخباره ولا في أدبه لهوا ولا مجونا ، ولا انفصاما عن السلوك السوي والخلق الرضي بل ينطق شعره بالكثير من مظاهر الجدية والحساسية اللتين قد تسببان له ألما وأسى في بعض الأحيان.

(١) ينظر مقدمة الديوان :٤٩، وابن دراج القسطلي ورائيته :٢٣٣،٢٣٤.

(٢) ينظر ابن دراج القسطلي ورائيته :٢٣٤.

وقد انعكست جديته وإيثاره الصعوبة الملتزمة على السهولة المتحررة مهما كلفه ذلك من مشقة ووقت وجهد انعكس هذا على أدبه في نوعية موضوعاته وطريقة أدائه حتى عرف بالتنقيح والتحكيك والصقل والأناة والمراجعة مما قد يتعب الناس ويضيق منه الأنفاس كما يقول ابن شهيد (١)، ومن ملامح شخصيته تدينه وحرصه على قراءة وفهم النصوص الإسلامية قرآنا وسنة وفقها وسيرة وتاريخا مما ترك بصمات واضحة على شعره الذي تأثر تأثرا بينا بالقرآن الكريم والحديث الشريف والسيرة النبوية العطرة والفقه الإسلامي ، ومن جميل اقتباساته من القرآن الكريم والحديث الشريف في وقت واحد قوله في مدح خيران العامري صاحب" ألمرية":

فَتى سيفه للدِّين أمن وإيمانُ ويُمْناه للآمال (رَوْحٌ ورَيْحَانٌ)

فَقُضَّتْ سُيوفٌ حارَبتْه وأيَمُنٌ (وشاهتْ وُجُوهٌ) فاخرتْه وتِيْجَانٌ(٢)

ومن ملامح شخصية ابن دراج المهمة :

إحساسه العميق بالأسرة، وتعلقه الشديد بزوجه وأولاده وقد انعكس هذا بوضوح على شعره ، فهو في ديوانه كثير الحديث عن مواقف وداعه لزوجه وأولاده – كما في قصيدتنا موضوع البحث – وهو وصَّاف ماهر لما يكون في هذه المواقف من مشاهد حسية ومشاعر نفسية(٣)

وفاته:

أغلب المؤرخين والمترجمين لحياة ابن دراج يذهبون إلى أنه مات في

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبى الحسن علي بن بسام الشنتريني – تحقيق لجنة من أساتذة آداب القاهرة : ٦١/١مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٤٥،١٩٣٩.

(٢) الديوان : ٧٧،٧٦ وينظر: ابن دراج القسطلي ورائيته :٢٣٧.

(٣) انظر : ابن دراج القسطلي ورائيته :٢٣٩.

"سرقسطة " سنة ٤٢١هـ ، وقد تجاوز السبعين من عمره(١)

عرض القصيدة:

دَعِـي عَزَمَـاتِ المُستضـامِ(٢) تسيـرُ فَتُنْجِدُ(٣) فـي عُرْضِ الفَلَا وتَغُورُ(٤)
لعـلَّ بمـا أَشْـجاكِ مـن لـوعةِ النّـوى يُعَـــزُّ ذليـــلٌ أو يُفَـــكُّ أَسيـــرُ
أَلَـمْ تـعلَمِي أن الثَّـوَاءَ(٥) هوالتَّـوى(٦) وأنَّ بيـــوتَ العاجزيـــن قبـــورُ
ولـم تزجُـرِي طَيْـرَ السُّـرَى(٧) بِحُروفِهـا فَتُنـــبِئُكِ إنْ يَـــمَّنَّ فهـــي ســـرور
تُخَوِّفُـــنِي طـــولَ السِّفـــارِ وإنَّـــهُ لِتَقْبِـــيلِ كَـــفِّ العامِـــرِيِّ سَفِـــيرُ
دَعِينِـي أَرِدُ (٨) مَـاءَ المفـاوِزِ آجِنـاً(٩) إلـى حيـثُ مـاء المكرُمـاتِ نميـرُ(١٠)

---

(١) ينظر : دراسات أدبية : ٢٥٣.

(٢) المستضام : من استضامه أي ضامه ، وضامه ضيما ظلمه ، وأذله ، وانتقصه ،وغبنه ؛لأن الضيم هو الظلم أو الإذلال ونحوهما . ينظر : لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ضيم)– دار صادر– بيروت – ط أولى – د.ت .

(٣) تنجد : من أنجد بمعنى ارتفع ، أو أتى نجدا ، أو صعد مرتفعا.السابق : (نجد).

(٤) غور : من أغار فلان : أتى الغور ، وهو كل منخفض من الأرض .السابق : (غور). والمعنى : دعيني أضرب في الأرض صعودا وهبوطا .

(٥) الثواء بالثاء المشددة المفتوحة : الإقامة. السابق : (ثوى).

(٦) التوى بالتاء المشددة المفتوحة :الهلاك . السابق : (توا).

(٧) السرى :سير الليل عامته أوكله .السابق(سرا).

(٨) رد : من الورود على الماء ، أي النزول عليه وعكسه الصدور .السابق : (ورد).

(٩)الآجن من الماء المتغير الآسن الكريه لطول ركوده ومكثه .السابق : (أجن).

(١٠)النمير من الماء العذب . السابق : (ورد).

وأختلــسُ (١) الأيــامَ خُلْسَــةَ فاتِــكٍ إلــى حيث لــي مــن غـدرهن خفيـرُ(٢)
فــإنَّ خطيــراتِ (٣) المهالِــكِ ضُــمَّنٌ لِرَاكِبِـــــها أنَّ الجَـــزاءَ خَطِيـــرُ(٤)
ولَمَّــا تَــدَانَتْ للــوداعِ وقــد هَــفَا (٥) بِصَــبْرِيَ منهــا أنَّــةٌ (٦) وزَفِيــرُ(٧)
تُنَاشِــدُنِي عــهدَ المَــودَّةِ والهَــوى وفــي المَهْـدِ مَبغُـومُ (٨) النِّـداءِ صَـغيرُ
عَيــيٌّ (٩)بمرجــوعِ الخِطَــابِ(١٠)ولَفْظُــهُ(١١) بِمَوْقِــعِ أَهْــوَاءِ النُّفُــوسِ خَبيــرُ
تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّــدَتْ لـــه أَذْرُعٌ محفوفَـــةٌ (١٢) ونُحُـــورُ
فكــلُّ مُفَــدَاةِ الترائــبِ (١٣) مُرْضِــعٌ وَكُــلِّ مُحَيَّــاةِ المحــاسن ظيــر(١٤)

---

(١) خلست الشيء واختلسته وتخلسته إذا استلبته .السابق (خلس).

(٢) خفير : مانع ومجير، وخفر الرجل وخفر به وعليه ، يخفر خفرا أجاره ومنعه وأمنه .السابق(خفر).

(٣)الخطرات: الخطر الإشراف على هلكة ، وخاطر بنفسه يخاطر أشفي بها على خطر هُلكٍ أو نيل نيل ملك . السابق : (خطر).

(٤)الخطير : من الخطر وهو ارتفاع القدر والمال والشرف والمنزلة ، والخطير من كل شيء النبيل النبيل .السابق(خطر).

(٥)هفا يهفو هفوا وهفوة ، والهفو : الذهاب في الهواء .السابق (هفا).

(٦)أنة : تأوه . السابق (أنن).

(٧)الزفير: أن يملأ الصدر غما ثم يزفلا به .السابق (زفر).

(٨)والمَبْغُومُ: الذى لا يرفع طرفه إلا إذا سمع بغام أمه .السابق (بغم).

(٩)عَيِيَ في المنطق عيا : حصر. السابق (عيا).

(١٠) مرجوع الخطاب : جوابه ور ده.السابق(رجع).

(١١) هناك رواية " ولحظه " بدلا من " ولفظه " .

(١٢)محفوفة : تطوف به وتعكف عليه .لسان العرب (حفف).

(١٣) الترائب : عظام صدر المرأة .السابق(ترب).

(١٤)الظئر المرضعة ، وكذلك التي ترضع غير ولدها.السابق(ظئر).

عَصَيْتُ شفيعَ النَّفْسِ فيه وقادَني رَوَاحٌ لِتِدْآبِ السُّرَى وبكورُ
وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ بي وهَفَتْ (١) بهَا جوانِحُ (٢)من ذُعْرِ الفراقِ تطيرُ
لئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُوراً فإنَّني عَلَى عَزْمَتِي من شَجْوِهَا (٣) لَغَيُورُ
ولو شاهَدَتْنِي والصَّوَاخِدُ (٤) تَلْتَظِي عَلَيّ وَرَقْرَاقِ(٥) السَّرَابِ يَمُورُ(٦)
أُسَلِّطُ حَرَّ الهاجِراتِ إذا سطا(٧) عَلَى حُرِّ وَجْهِي والأصيلُ هَجِيرُ
وأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ (٨) وَهْيَ بَوَارِحٌ (٩) وأَسْتَوْطِئُ الرَّمْضَاءَ (١٠) وَهْيَ تفورُ

وللمَوْتِ في عَيْشِ الجبانِ تَلونٌ (١١) وللذُّعْرِ في سمع الجريءِ صَفِيرُ
لَبَانَ لها أَنِّي مِنَ الضَّيْمِ جَازِعٌ وأَنِّي عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ (١٢) صَبُورُ

---

(١)هفت الشيء هفتا : تطاير لخفته .السابق (هفت).
(٢)الجوانح :أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر والضلوع مما يلى الظهر؛ سميت بذلك لجنوحها على القلب.السابق(جنح).
(٣)حزنها .السابق(شجا).
(٤)الصيخد : عين الشمس سمي به لشدة حرها .السابق (صخد).
(٥)والرَّقراقُ تَرْقُرُق السَّراب وكل شيء له بَصيص وتلأْلُؤ فهو رَقْراق .السابق(رقق).
(٦)يتحرك. السابق (مور)
(٧) أي صال وكثر عليه .السابق(سطا).
(٨)الريح الشديدة. السابق (نكب).
(٩)الرياح الشدائد التي تحمل التراب في شدة الهبوات .السابق(برح).
(١٠)الرملة شديدة الحرارة .السابق(رمض).
(١١)المتغير الذي لا يثبت على خلق واحد. السابق(لون).
(١٢) مض الخطوب : أي موجعها وشديدها .السابق(مضض).

أمِيرٌ عَلَى غَوْلِ (١) التَّنَائِفِ (٢) ما له إذا رِيـــعَ إلَّا المَشْرَفِـــيَّ وزيـــرُ ما له

وَلَوْ بَصُرَتْ بِى والسُّرَى جُلُّ[٣]عَزْمَتِي وجَرْسِـي (٤) لِجِنَّـانِ (٥) الفَـلَاةِ سَـمِيرُ

وأَعْتَسِفُ [٦] المَوْمَاةِ[٧] في غَسَقِ الدُّجَى[٨] ولِلأُسْـدِ فـي غِيـلِ(٩) الغِيَـاضِ(١٠) زَئِيـرُ الدُّجَى[٨]

وقد حَوَّمَتْ(١١) زُهْرُ النُّجُومِ كأنَّها كواعِـبُ فـي خُضْـرِ الحَـدَائقِ حُـورُ

---

(١) غاله غولا :أهلكه ، واغتاله: أهلكه وأخذه من حيث لم يدر .السابق(غول).

(٢) التنائف : جمع تنوفة ، وهى الأرض القفر ، والتنوفة: التي لا ماء بها من الفلوات ولا أنيس .السابق(نتف)،وعلى هذا فغول التنائف: أي الفلاة التي يغتال ويهلك من يمر بها ، من حيث لا يدرى الشاعر فهو كالأمير لهذه الفلاة المهلكة، وزيره سيفه وشجاعته فأنى يأتيه الهلاك .

(٣) جل الشيء وجلاله : معظمه .السابق(جلل).

(٤) جرسى :صوتى السابق (جرس).

(٥) الجنان : جمع " جنان" وهو من يقابل الإنس من مخلوقات الله التي ترانا ولا نراها.السابق (جنن).

(٦) الاعتساف :ركوب المفازة وقطعها من غير قصد ولا هداية ولا طريق مسلوك .اللسان (عسف).

(٧) المفازة التي لا ماء ولا أنيس بها .السابق(موم).

(٨) غسق الدجى : الظلام الشديد المطبق .اللسان(غسق ، ودجا)

(٩) الغيل : الشجر الكثيف الملتف الذي يستتر فيه ، وموضع الأسد يسمى غيل .السابق(غيل).

(١٠)الغياض :بكسر الغين :جمع غيضة وهى الأجمة والموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.السابق(غيض)

(١١)حوم الطائر يحوم حول الماء ويلوب إذا كان يدور حوله من العطش. السابق(حوم).

ودارَتْ نُجُــومُ القُطْــبِ(١) حتَّــى كَأَنَّهَــا كُؤُوسُ(٢) مَهًا وَالَى(٣) بِهِنَّ مُدِيرُ(٤) مُدِيرُ(٤)

وَقَــدْ خَيَّــلَتْ طُــرْقُ المَجَــرَّةِ(٥) أَنَّــهَا على مفرق الليل البهيم قتيرُ(٦)

وثَاقِــبَ عَــزْمِي والظَّــلَامُ مُــرَوِّعٌ وقد غَضَّ(٧)أَجْفَانَ النُّجُومِ فُتُورُ

لَقَــدْ أَيْقَنَــتْ أَنَّ المُــنَى طَــوْعُ هِمَّتِــي وأَنِّــي بِعَطْــفِ العَامِــرِيِّ جَدِيــرُ

وأَنِّــي بِذِكْــرَاهُ لِهَمِّــيَ زَاجِــرٌ وَأَنِّــي مِنْــهُ للخُطُــوبِ نَذِيــرُ

وأَيُّ فتَــى للــدِّينِ والمُلْــكِ والنَّــدَى وَتَصْــدِيقُ ظَــنِّ الــرَّاغِبِينَ نَــزُورُ

مُجِيــرُ الهُــدَى والــدِّينِ مِــنْ كُــلِّ مُلْحِــدٍ ولــيسَ عَلَيــهِ لِلضَّــلَالِ مُجِــيرُ

تلاقَــتْ عليــهِ مــن تَميــمٍ ويَعْــرُبٍ شُــموسٌ تَــلَالَا فــي العُــلَا وبُــدُورُ

مــنَ الحِمْيَرِيِّــينَ الَّــذِينَ أَكُفُّهُــمْ سَــحَائِبُ تَهْمِــي(٨) بالنَّــدَى ويُحُــورُ

ذَوُو دُوَلِ المُلْــكِ الَّــذي سَــلَفَتْ بِهَــا لَهُــمْ أَعْصُــرٌ مَوْصُــولَةٌ ودُهُــورُ

لَهُــمْ بَــذَلَ الــدَّهْرُ الأَبِــيُّ قِيــادَهُ وَهُــمْ سَــكَنُوا الأَيَّــامَ وَهْــيَ نُفُــورُ

---

(١) القطب :كوكب بين الجدي والفرقدين يدور عليه الفلك ، وهو صغير أبيض لا يبرح مكانه أبدا....وتدور الكواكب عليه .انظر السابق (قطب)

(٢) كؤوس مها: أي كؤوس من البلور.

(٣) تابع .السابق(ولى).

(٤) المدير: اسم فاعل من أدار يدير، والمراد به هنا :الساقى الذي يدير الكؤوس على الشاربين.السابق(دور).

(٥) المجرة : البياض المعترض في السماء. السابق(جرر)

(٦) قتير : الشيب. السابق(قتر).

(٧) الغضاضة : الفتور في الطرف .السابق(غضض).

(٨) تصب بغزارة .السابق(همى).

وهُـمْ ضَـرَبُوا الآفـاقَ شـرقاً ومغرِبـاً بِجَمْـعٍ يَسـيرُ النَّصْـرُ حَيْـثُ يَسِـيرُ
وهُـمْ يَسْتَقِـلُّونَ الحيـاةَ لِرَاغِـبٍ ويَسْتَصْـغِرُونَ الخَطْـبَ وَهْـوَ كَبِيـرُ
وهُـمْ نَصَـرُوا حِـزْبَ النُّبُـوَّةِ والهُـدَى ولـيسَ لَهـا فـي العالَمِيـنَ نَصِيـرُ
وهُـمْ صَدَّقُـوا بـالوَحْيِ لَمَّـا أَتَاهُـمُ ومـا النَّـاسُ إلا عَانِـدٌ وكَفُـورُ
مناقِبُ يَعْيَا الوَصْفُ عَنْ كُنْـهِ قَـدْرِهَا ويَرْجِـعُ عَنْهَـا الـوَهْمُ وَهْـوَ حَسِيـرُ
أَلا كُـلُّ مَـدْحٍ عَـنْ مَـدَاكَ مُقَصِّـرٌ وكُـلُّ رَجَـاءٍ فـي سِـوَاكَ غُـرُورُ
تَمَلَّيْـتَ هـذا العيـدَ عِـدَّةَ أَعْصُـرٍ تُوَالِيـكَ مِنْـهَا أَنْعُـمٌ وحُبُـورُ
ولا فَقَـدَتْ أَيَّامُـكَ الغُـرَّ أَنْفُـسٌ حياتُـكَ أَعْيَـادٌ لَهُـمْ وَسُـرورُ
ولَمَّـا تَوَافَـوْا للسَّـلامِ ورُفِّعَـتُ عن الشمسِ في أُفْقِ الشُّروقِ سُتُورُ
وقَـدْ قَـامَ مِـنْ زُرْقِ الأَسِنَّـةِ دُونَهَـا صفوفٌ ومن بِيْضِ السُّيُوفِ سُطُورُ
رَأَوْا طَاعَـةَ الـرَّحْمَنِ كَيْـفَ اعْتِزَازُهَـا وآيـاتِ صُنْـعِ اللَّـهِ كيـفَ تُنِيـرُ
وكَيفَ اسْتَوى بـالبحرِ والبَـدْرِ مَجْلِسٌ وقَـامَ بِعِـبْءِ الرَّاسِيَـاتِ سَرِيـرُ(١)
فَسَـارُوا عِجَـالاً والقُلُـوبُ خَوَافِـقٌ وأُدْنُوا بِطَاءً والنَّوَاظِرُ صُورُ(٢)
يَقُولُـونَ وَالإِجْـلَالُ يُخْـرِسُ أَلْسُنَـاً وحـازَتْ عُيُـونٌ مِلْأَهَـا وصُـدُورُ
لَقَـدْ حَـاطَ أَعْـلَامَ الهُـدَى بِـكَ حَـائِطٌ وَقَـدَّرَ فيـكَ المَـكْرُمَاتِ قَدِيـرُ
مُقِيمٌ عَلَى بَذْلِ الرَّغَائِبِ(٣) واللُّهَى(٤) وفِكْـرُكَ فـي أَقْـصَى الـبِلَادِ يسيـرُ

---

(١) الملك والنعمة .اللسان(سرر).

(٢) صاره يصوره ويصيره : أماله ، أي نواظرهم مائلة .السابق(صور).

(٣) العطاء الكثير. السابق(رغب).

واللُّهَى(١)

وأَيْـنَ انْتَـوى فَـلُّ(٢) الضَّـلَالَةِ فَـانْتَهَى ... وأَيــنَ جُيُــوشُ المسلِمِيــنَ تُغِيــرُ

وحَسْبُكَ مِنْ خَفْضِ النَّعِيمِ(٣) مُعَيِّدًا(٤) ... جِهَازٌ(٥) إِلى أَرْضِ العِدَى ونَفِيرُ

فَقُــدْهَا إِلَــى الأَعْــدَاءِ شُــعْثاً كَأَنَّهَــا ... أَرَاقِمُ(٦) فِي شُمِّ الرُّبَى وصُقُورُ

فَعَزْمُــكَ بِالنَّصْــرِ العَزِيــزِ مُخَبِّــرٌ ... وسَعْــدُكَ بِالفَتْــحِ المُبِيــنِ بَشِيــرُ

ونَــادَاكَ يــا بْـنَ المُنْعِمِـينَ ابْـنُ عَشْـرَةٍ ... وعَبْــدٌ لِنُعْــمَاكَ الجِــسَامِ شَكُــورُ

غَنِــيٌّ بِجَــدْوَى رَاحَتَيْــكَ وإِنَّــهُ ... إِلــى سَبَــبٍ يُدْنِــي رِضَــاكَ فَقِيــرُ

ومِــنْ دُونِ سِــتْرَيْ عِفَّتِــي وتَجَمُّلِــي ... لَرَيْـبٌ(٧) وصَـرْفٌ(٨) لِلزَّمَـانِ يَجُـورُ

وضَــاءَلَ قَــدْرِي فِــي ذُرَاكَ(٩) عَوَائِــقٌ ... جَرَتْ لِيَ بَرْحَاً (١٠) والقَضَاءُ عَسِيرُ

ومــا شَــكَرَ "النَّخْعِــيُّ" شُــكْرِي وَلَا وَفَــى ... وفَــائِي- إِذْ عَــزَّ الوَفَــاءُ- " قصــيرُ"

فَقُدْنِي لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ ... وَكِلْنِـي لِلَيْـثِ الغَـابِ وَهْـوَ هَصُـورُ(١١)

---

(١) أفضل العطاء وأجزله. السابق(لها).

(٢) الفل: المنهزمون ، وفل القوم يفلهم فلا : هزمهم فانفلوا وتفللوا .السابق (فلل).

(٣) لين العيش وسعته .السابق(خفض).

(٤) يقال هو معيد لهذا الشيء ،أي مطيق له لأنه قد اعتاده . السابق(عيد).

(٥) الجهاز هو ما يتكلفه الإنسان في تجهيز الشيء كجيش وعروس نحوه .السابق(جهز).

(٦) الأرقم من الحيات هو أخبثها .السابق(رقم).

(٧) الريب : صرف الدهر وحوادثه .اللسان(ريب).

(٨) صرف الدهر: حدثانه ونوائبه .السابق(صرف)

(٩) الذرى بالفتح :كل ما اسستترت به ، يقال :أنا في ظل فلان وفي ذراه، أي في كنفه وستره ودفئه .السابق(ذرا).

(١٠)البرح : الشر والعذاب الشديد، وقيل الشدائد ، وقيل كُلفُ المعيشة في مشقة .السابق(برح).

(١١)الهصور :الأسد الشديد الذي يفترس .السابق(هصر).

فقد تَخْفِضُ الأَسْمَاءُ وَهْيَ سَوَاكِنٌ ويَعْمَلُ في الفِعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرُ
وتَنْبُو(١) الرُّدَيْنِيَاتُ والطُّولُ وَافِرٌ ويَنْفُذُ وَقْعُ السَّهْمِ وَهْوَ قَصِيرُ
حَنانَيْكَ في غُفْرَانِ زِلَّةِ تَائِبٍ وإِنَّ الَّذِي يَجْرِي بِهِ لَغَفُورُ

****

(١) نَبا حَدُّ السيفِ إذا لم يَقطع .السابق(نبا).

مباحث تحليل القصيدة

المبحث الأول: مقدمة ذاتية (حوار بين الشاعر وزوجه حول السفر)١-٨

المبحث الثاني: وصف وتصوير مشهد وداع زوجه وطفله الرضيع.٩-١٦

المبحث الثالث: وصف رحلته إلى الممدوح وما عاناه فيها. ١٧-٣٠

المبحث الرابع:مدح الشاعر المنصور بن عامر وقومه. ٣١- ٤٤

المبحث الخامس:تتويج الممدوح بأعماله المجيدة وبطولاته الفريدة. ٤٥- ٥٦

المبحث السادس:حديث الشاعر عن أبرز صفاته .٥٧- ٦٥

المبحث الأول

مقدمة ذاتية (حوار بين الشاعر وزوجه حول السفر) الأبيات١-٨

يقول ابن دراج من الطويل: (١)

دَعِـي عَزَمَـاتِ المُستضـامِ(٢) تسيـرُ ... فَتُنْجِدُ(٣) فـي عُرْضِ الفَلَا وتَغُورُ(٤)

لعـلَّ بمـا أَشْـجاكِ مـن لـوعةِ النّـوَى ... يُعَـــزُّ ذليـــلٌ أو يُفَـــكُّ أَسيـــرُ

أَلَـمْ تـعلَمِي أن الثَّـوَاءَ(٥) هوالتَّـوى(٦) ... وأنَّ بيـــوتَ العاجزيـــن قبـــورُ

ولـم تزجُـرِي طَيْـرَ السُّـرَى(٧) بِحُروفِهـا ... فَتُنْـــبِئُكِ إنْ يَـــمَّنَّ فهـــي ســـرور

تُخَوِّفُـــنِي طـــولَ السِّفـــارِ وإنَّـــهُ ... لِتَقْبِـــيلِ كَـــفِّ العامِـــرِيِّ سَفِـــيرُ

دَعِينِـي أَرِدُ (٨) مَـاءَ المفـاوِزِ آجِنـاً(٩) ... إلـى حيـثُ مـاء المكرُمـاتِ نميـرُ(١٠)

وأختلـــِسُ (١١) الأيـــامَ خُلْسَـــةَ فاتِـــكٍ ... إلـى حيـث لـي مـن غـدرهن خفيـرُ(١)

---

(١) الديوان : ٢٩٧،٢٩٨.

(٢) المستضام : من استضامه أي ضامه ، وضامه ضيما ظلمه ، وأذله ، وانتقصه ،وغبنه ؛لأن الضيم هو الظلم أو الإذلال ونحوهما . ينظر : لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ضيم)– دار صادر– بيروت – ط أولى – د.ت .

(٣) تنجد : من أنجد بمعنى ارتفع ، أو أتى نجدا ، أو صعد مرتفعا.السابق : (نجد).

(٤) غور : من أغار فلان : أتى الغور ، وهو كل منخفض من الأرض .السابق : (غور). والمعنى : دعيني أضرب في الأرض صعودا وهبوطا .

(٥) الثواء بالثاء المشددة المفتوحة : الإقامة. السابق : (ثوى).

(٦) التوى بالتاء المشددة المفتوحة :الهلاك . السابق : (توا).

(٧) السرى :سير الليل عامته أوكله .السابق(سرا).

(٨) رد : من الورود على الماء ، أي النزول عليه وعكسه الصدور .السابق : (ورد).

(٩) الآجن من الماء المتغير الآسن الكريه لطول ركوده ومكثه .السابق : (أجن).

(١٠) النمير من الماء العذب . السابق : (ورد).

(١١) خلست الشيء واختلسته وتخلسته إذا استلبته .السابق (خلس).

فـإنَّ خطيـراتِ (٢) المهالِـكِ ضُـمَّنٌ لِرَاكِبِـــها أنَّ الجَـــزاءَ خَطِيـــرُ(٣)

يستهل الشاعر قصيدته بأسلوب الطلب القائم على الأمر الموجه إلى زوجه الرؤوم في قوله " دعي " الذي أبان عن التماسه بأن تتركه ينفذ عزمه وقراره بالسفر والترحال.

ولعل الافتتاحية بهذا الأسلوب تحمل في طياتها ألوانا من القلق والتوتر والاضطراب الذي عليه نفسية الشاعر، فنفسه موزعة بين القرار بالرحيل وبين حزنه وضيقه وقلقه على تذكر وجه رضيعه؛ لذا نلحظ أنه وجه الأمر " دعي" إلى "عزمات"، فهو يخشى من إلحاح زوجه عليه بالبقاء فتخور عزماته ومن ثم يعدل عن وجهته ، والعزمة هي الأمر الجدي ، وفي اصطفاء الشاعر صيغة الجمع " عزمات" ما يوحى بأن الأمر جد عظيم ، وأنه لا مناص من تنفيذه ، والإضافة في "عزمات المستضام" كشفت عن مدى جديته على المضي قدما في تحقيق ما يصبو إليه.

وقد بنى ابن دراج قوله " عزمات المستضام تسير" على الاستعارة المكنية ، حيث شبه تلك العزمات بإنسان يسير، وقد مكنته تلك الاستعارة من عرض ما يمور داخل نفسه من تصميم وعزم أكيد على الترحال ، والحق أنه كان مبدعا في عرض ذلك عن طريق إعمال الخيال فيه إعمالا فنيا ، مكنه من تطويع صور

---

(١) خفير : مانع ومجير، وخفر الرجل وخفر به وعليه ، يخفر خفرا أجاره ومنعه وأمنه . السابق(خفر).

(٢) الخطرات: الخطر الإشراف على هلكة ، وخاطر بنفسه يخاطر أشفي بها على خطر هُلكٍ أو نيل ملك . السابق : (خطر).

(٣) الخطير : من الخطر وهو ارتفاع القدر والمال والشرف والمنزلة ، والخطير من كل شيء النبيل .السابق(خطر).

اللغة وإيحاءاتها لخدمة معانيه وتوجيه أفكاره عن طريق سلطان الخيال الذي أبدع في تصويره عبر هذه الصورة .

وتأتى " الفاء" في قوله " فتنجد في عرض الفلا وتغور" وقد أحكمت أجزاء الكلام بعضه ببعض فتلك الفاء هي " ذلك الرباط الذي يربط أجزاء المعاني بعضها ببعض"(١)

وأتى الطباق بين " فتنجد " و " تغور " مفصحا عن حالة القلق والتوتر التي تكاد تصل إلى درجة التناقض بين عزمه الرحيل وبين قلقه وخوفه على أسرته بعد مفارقتها .

والكناية عن تلك المسافات الشاسعة التي سيقطعها في قوله "عرض الفلا" استطاع الشاعر من ورائها أن يجسد جزءا من المعاناة التي تنتظره .

وقد استهل الشاعر هذا البيت بـ " لعل" في قوله "لعلَّ بما أَشْجاكِ من لوعةِ النّوَى" وهو بذلك يعلل التماسه منها بترك عزماته تسير إلى مبتغاها بأن ما قد يكون سببا في حزنها وفراقها يكون سببا لتحسن الأحوال المعيشية فيكون العز بعد الذل ، والحرية بعد الأسر.

ونلمح في هذا البيت طمأنة الشاعر زوجه وتعليل لما عقد عزمه عليه ، وكأنه يطيب خاطرها.

وقد كشف التعبير بـ " ما" الموصولة عن شيء من ذلك حيث كان الغرض من الموصول تقرير الغرض المسوق له الكلام وهو تعليل سفره ورحيله بأنه مما سيجلب عليها السرور فيما بعد.

واصطفاء الشاعر كلمة" لوعة" في هذا الموقف قد صورت المشاعر أتم تصوير ، زاد من ذلك الإضافة إلى كلمة " النوى" .

(١) قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى : ٤٦– دار الفكر العربي – ط أولى – د. ت .

وبناء الفعلين "يعز" و" يفك" للمجهول فيهما ما فيهما من الاختصار والإيجاز والموقف والسياق يحتمان ذلك.

والذليل والأسير كنايتان عن نفسه رمز بهما إلى نفسه ، فقد اعتمد على هذا المشهد الرمزي الخيالي ليبين لزوجه ولنا موقفه من واقعه الأليم المرفوض الذي لم يعد يقوى على التأقلم معه والعيش فيه ، ومن ذا الذي يرضى أن يعيش ذليلا أو أسيرا؟! ومن ثم فهو سينفذ عزماته لا محالة .

والطباق بين " يعز ذليل " و" يفك أسير" يكشفان عن الصراع النفسي الذي يحياه الشاعر ، ويفصحان أيضا عن قلقه وتوتره من جراء اغترابه وترحاله.

ولا يخفي ما في هذين البيتين من عذوبة وسلاسة – رغم جو التوتر والقلق – من خلال تكرار حرف "العين" ست مرات ، " والتاء" خمس مرات و" تكرار حرف بعينه في كلمات البيت يضفي على الكلام قدراً من العذوبة والسلاسة " (١)

وغني عن البيان أن الشاعر في هذين البيتين يخاطب " زوجه بأن رحيله ذلك ربما سيجنى من ورائه العز، ويتخلص من قيود الغربة والاغتراب، فجاءت القافية مبنية على حرف الراء المجهور والضمة ليوضح رغبته في التخلص من تلك القيود إذ يقول :

لعلَّب ما أَشْجاكِ من لوعةِ النّوى يُعَزّ ُ ذليلٌ أو يُفَكُّ أَسيرُ(٢)

ويتمادى الشاعر في إقناع زوجه برحيله فيأتي البيت الثالث :

---

(١) دراسة في البلاغة والشعر، محمد أبو موسى، ٢٠٤ ،مكتبة وهبة، ط ١ ، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ .

(٢) الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره / روضة بلال عمر المولد :٣٧٧ – ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى –١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م.

أَلَمْ تعلَمِى أن الثَّوَاءَ هو التَّوى وأنّ بيوتَ العاجزين قبورُ

وقد استهله أيضا بأسلوب الإنشاء الطلبي من خلال جملة الاستفهام " ألم تعلمي .." وقد أبان عن معنى التقرير فهو يقررها بتلك الحقائق الثابتة بأن الإقامة على الذل والفاقة تعد في حقيقة الأمر هلاكا، وتجد أسلوب القصر بطريق ضمير الفصل في قوله " الثواء هو التوى " قد أكد به ما يرمى إليه من تأكيد مثل تلك الحقائق.

هذا وقد أمعن الشاعر في سلوك طريق التأكيد بـ" أن" ويبدو أنه هنا يعلم أن زوجه تعلم تلك الحقيقة ، ولكنها لفرط ما ألم بها من حزن وغم وضيق بسبب عزمه فراقها، نزلها منزلة من ينكر ذلك فيكون التعبير بـ" أن " في الشطر الأول والثاني خروجاً للكلام على خلاف مقتضى الظاهر .

وجملة "وأنَّ بيوتَ العاجزين قبورُ" تكاد تصل إلى حد الحكمة ، ومن خلالها يشبه الشاعر بيوت أولئك الذين يرضون بالفاقة والمذلة دونما بحث عن العزة والسؤدد في ضرب جنبات الأرض بالقبور في وحشتها وظلمتها، وهو تشبيه محذوف الوجه والأداة اتخذه الشاعر وسيلة لينفر أشد النفور من التواني والتكاسل عن طلب العلا، ونضم صوتنا لصوت الشاعر ونقول إن من يستطيع أن يرقى إلى السماء فمن العار عليه أن يرضى بالأرض. أو كما قال أبو القاسم الشابي :

وَمَنْ لا يحبُّ صُعُودَ الجبالِ يَعِشْ أبَدَ الدَّهْرِ بينَ الحُفَرْ(١)

وفي ذلك الذي أورده شاعرنا ابن دراج مزيد إقناع للزوج الرافضة رحيل وفراق زوجها . والإضافة في " بيوت العاجزين" كان لها دورها في التنفير من أمثال

(١) البيت في ديوانه – تقديم وشرح/ أحمد حسن بسج:٧٠– دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان– ط رابعة –١٤٢٦هـ – ٢٠٠٥م.

تلك البيوت ، وكانت أداة جيدة في التعبير عن مراد الشاعر.

وبين جملة " أن الثَّوَاءَ هو التَّوى " وجملة " وأنَّ بيوتَ العاجزين قبورُ" وصل للتوسط بين الكمالين ، حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى ، ومن ثم كان للوصل دوره الآسر في صب مزيد من الإقناع للزوج في هذا الموقف العصيب ، موقف رحيل وفراق زوجها.

ويأتي قوله :

ولم تزجُرِ يطَيْرَ السُّرَى بِحُروفِها فَتُنْبِئْكِ إنْ يَمَّنَ فهي سرورُ

موصولا بالبيت السابق لما بينهما من توسط بين الكمالين فقد اتحد البيتان في الإنشائية لفظا ومعنى.

وفي البيت إيجاز بحذف حرف الاسفهام " الهمزة" إذ التقدير" وألم تزجري الطير.." وقد أفصح هذا الحذف عن جانب من ذاك الموقف العصيب الذي يعيشه الشاعر إبان عزمه على فراق الزوج والولد، وعرضه المزيد من الحجج كي يقنع الزوج بما عزم عليه ، وكان الحذف مطابقا لمقتضى حاله .

وكان هذا البيت برمته إحدى حجج الشاعر على زوجه ، فهاهو يقررها بطريق الاستفهام المحذوف الأداة بأنها قامت تكرارا ومرارا بزجر طير السرى على أمر سفره ورحيله ، فكانت تلك الطيور تخبرها دائما بأنها إن سارت جهة اليمين فهو سفر السرور والحبور. والتعبير بالمضارع " تزجري " أبان عن تجدد واستمرار زجر الطير منها؛وذلك ما يميط اللثام عن شدة قلقها من ذلك الرحيل. وتأمل " الفاء" في قوله " فتنبئك " التي أفصحت عن سرعة إخبار الطير لها كلما زجرته ، وكأنه يقول لزوجه لا داعي للقلق والتوتر والضيق مادامت تلك الطيور دائمة الإخبار لك بيمن وسرور من وراء هذا السفر .

وغني عن البيان القول بأن عادة زجر الطير عادة جاهلية قضى عليها

ديننا الإسلامي الحنيف، ونحسب أن شاعرنا ابن دراج ذو قدم راسخة في الدين والثقافة الإسلامية ،علاوة على استلهامه شعر الجاهلين، ولعل الذي حدا به إلى ذلك مجاراة الشعراء الجاهليين في تلك الشعيرة ،وكأنها منسك من مناسك الشعر لابد من التعريج عليه .

وفي اصطفاء الفعل " تنبئك " دون تخبرك، ما يدل على أن الأمر جلل،فالنبأ سوى الخبر حيث ورد أن" في النبأ معنى عظيم الشأن....ولهذا يقال: سيكون لفلان نبأ ، ولا يقال خبر بهذا المعنى(١) وأي أمر جلل أعظم من الإخبار بالسرور الذي سيعقب هذا الترحال ؟!

ويتجلى حرص الشاعر في حشد كل وسائل وسبل الإقناع فنلحظه قد استعان بأسلوب الشرط الدال على الزمن الماضي " إِنْ يَمَّنَ فهي سرورُ" ليوحي بدوام وثبوت اتجاه الطير ناحية اليمين ، ومن ثم يكون السرور والاطمئنان .

ويؤكد تلك المعاني أن الشاعر اكتفي بهذا الشرط دون ذكر المقابل له ، وهو اتجاه الطير جهة الشمال ، ومن ثم يكون التشاؤم والحزن ، بينما هو حريص الحرص كله على إبعاد ما من شأنه أن يكدر صفو زوجه فتمعن في إثنائه عن عزمه على الرحيل.

و" الفاء " في قوله " فهي سرورُ" تبعث برسالة سريعة لطمأنة زوجه،كما أن التعبير بالضمير" فهي" يؤكد ظلال السرور الذي سيكون من وراء تلك الرحلة . ونلحظ في الأبيات الثلاثة السابقة أن الحوار بين الشاعر وزوجه كان عن طريق الخطاب،ثم نجده قد التفت إلى الغيبة بقوله :

تُخَوِّفُنِي طولَ السِّفار وإنَّهُ لِتَقْبِيلِ كَفِّ العامِرِيّ ِسَفِيرُ

(١) الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري – تحقيق وتعليق / محمد إبراهيم سليم :٤١– دار العلم والثقافة الإسلامية للنشر والتوزيع – القاهرة – د. ت .

والالتفات طبع وسجية عند ابن دراج،بل عند العرب عموما، فهو يجيء – كما قال الزمخشري – "على عادة افتتانهم في الكلام وتصرفهم فيه؛ ولأنَّ الكلام إذا نُقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد "(١) ويمكن أن يكون في هذا الالتفات إشارة أخرى وهو أن" التخويف"– ولو كان للحرص على الشيء والمحافظة عليه – مما لا يليق أن يصدر من الزوج إلى زوجها؛ لذلك كان من فرط حبه وتقديره لها لم يشأ أن يواجهها بصدور هذا الفعل منها،فلم يقل لها"تخوفينني"بعد مراعاة وزن البيت.

ويتجلى في هذا البيت ذكاء ابن دراج الوقاد، وحرصه على نيل الحظوة والمكانة لدى ممدوحه " المنصور بن عامر " فهو إذ يعرض مشهد تخويف زوجه إياه من وعثاء السفر وطوله إلى العامري وخطورته، يضرب بهذا التخويف عرض الحائط، ولم يلتفت إليه ؛ لأن غايته تهون عليه مجابهة كل المخاوف وملاقاة كل المخاطر،فكيف إذا كانت غايته هي تقبيل كف العامري؟!!

وفي التعبير عن السفر بالمصدر"السفار" تهويل وتعظيم من شأن ذلكم السفر، وقد تعاونت الإضافة "طول السفار" مع المصدر في إبراز ذلك المعنى،وكل ذلك تلميح لما عاناه الشاعر من أجل نيل رضا الممدوح الذي أفصح عنه فيما بعد بقوله:

غَنِيٌّ بِجَدَوَى رَاحَتَيْكَ وإِنَّهُ إلى سَبَبٍ يُدْنِي رِضَاكَ فَقِيرُ(٢)

وبين قوله"وإِنَّهُ لِتَقْبِيلِ كَفِّ العامِرِيِّ سَفِيرُ" وقوله" تُخَوِّفُنِي طولَ السِّفار" وصل للتوسط بين الكمالين،حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى.

(١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري، تحقيق : عبد الرازق المهدي ٥٦/١، دار إحياء التراث العربي، بيروت،د.ت .

(٢) الديوان :٣٠٣.

وفي قوله"وإنه" تلحظ فيه ورود الخبر مؤكدا بـ" إن " وغير خاف أن تأكيد الخبربـ" إن " هنا ليس منظورا فيه إلى حال المخاطب بأنه خالي الذهن ، أو متردد،أو منزل حسب مقتضيات الخبر، ليس أي شيء من ذلك كله، فـ " هناك ضروب من التوكيد – كهذا التوكيد – لا ينظر فيها إلى حال المخاطب، وإنما ينظر فيها المتكلم إلى حال نفسه، ومدى انفعاله بهذه الحقائق، وحرصه على إذاعتها، وتقريرها في النفوس كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه، وهذا اللون كثير جداً، وله مذاقات حسنة "(١)

وتقديم قوله" لِتَقْبِيلِ كَفِّ العامِرِيِّ" على خبر" إن " " سفير" فيه إبراز لما يعنى به الشاعر، علاوة على ما في هذا التقديم من " التوازن الصوتي الذي يشارك مشاركة فعالة في تحريك القلوب وبعث خوافي الإحساس والشعور" (٢) وتأمل توالى الإضافات " لِتَقْبِيلِ كَفِّ العامِرِيِّ" وقد كشفت عن عظيم تعلق نفس الشاعر بالممدوح ، ولعل هذا ما أمه من خلال هذا الحشد من الإضافات .

ولعل في اصطفاء كلمة " كف" دون غيرها كوجه مثلا أو رأس ، ما يعد رمزية من الشاعر ، فالكف سمة العطاء والنوال ، وما قصد الشاعر من المدح سوى ذلك. وقد أفصح عن ذلك في البيت الثاني من قصيدته تلك ، إذ جعل علة سفره الذي بسببه ستلاقى أسرته لوعة النوى قوله " يُعَزُّ ذليلٌ أو يُفَكُّ أَسيرُ" كما سيفصح عن ذلك فيما سيأتي من أبيات.

ويأتي قوله:

دَعِينِي أَرِدُ مَاءَ المفاوِزِ آجِناً إلى حيثُ ماء المكرُماتِ نمير

مفصولا عن سابقه لكمال الانقطاع بلا إيهام ، فالبيت السابق مبني على

---

(١) خصائص التراكيب ، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، محمد أبو موسى، ٩٥ ،مكتبة وهبة،ط ٤ ، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦ ، بتصرف قليل .

(٢) السابق : ٩٥.

جملة خبرية " تخوفني ...." وهذا مبني على جملة إنشائية ، فلما اختلفت الجملتان بين الخبرية والإنشائية فصل بينهما ؛ لأن العطف يقتضى التآلف والتناسب ، بينما هما متباينتان تباينا تاما.

وقد التفت من الغيبة إلى الخطاب في هذا البيت حيث وجه الأمر" دعيني" لزوجه ملتمسا منها تركه للرحيل .ويلحظ على الشاعر أنه قد كرر هذا الفعل مرتين حيث استهل به أول بيت في قصيدته حينما قال " دعي عزمات ..." ثم كرره هنا في هذا البيت حيث قال " دعيني " ، وقد اتكأ عليه دون غيره من الأفعال لما يحمله من دلالات ومعان كثيرة يفجرها الشاعر في قصيدته بما يتواءم مع حالته النفسية والشعورية مما يميط اللثام عن مدى حزنه وكمده المعتمل في صدره من جراء عزمه على الرحيل ، وإن كان يتظاهر بالتماسك ورباطة الجأش أمام زوجه . وقد كنى عن الرحيل بقوله " أَرِدُ مَاءَ المفاوِزِ آجِناً" فهو رحيل مر وصعب ، وقد كشفت الكناية عن هذه المرارة وتلك الصعوبة .

وفي اصطفاء كلمة " ماء" ما يوحى بعزة وندرة هذا العنصر الحيوي في تلك الأماكن " المفاوز " ، ولعله يريد من وجه بعيد على سبيل التورية بالماء الحياة نفسها ، الحياة الكريمة التي يطمح إليها ، فالماء رمز الحياة وشريانها، وهذا ليس ببدع فقد جعل الله –سبحانه – من الماء كل شيء حيي .

وفي إيثار التعبير بالجمع في قوله " المفاوز " إبراز لطول المسافة وبعد الشقة. والإضافة " ماء المفاوز " إضافة عجيبة قلما يعبر بها في مثل تلك المواطن ، إذ المفازة هي الصحراء القاحلة وربما القاتلة ، وما سميت بـ "مفازة" إلا من باب التفاؤل ، فالذي يخرج منها حيا يعد فائزا بحياته ، على غرار " قولهم للملدوغ سليم وإنما السّليم المُعافى"(١)، ولعل من أبرز ما يهلك عابر

(١) المخصص لأبى الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده – تحقيق : خليل إبراهيم

الفيافي هو انقطاع وانعدام مياهها ، ومن هنا أتى العجب من إضافة الماء إلى المفاوز.

والتعبير بالحال " آجناً " كشف عن طبيعة وحال ذلك الماء فهو ماء آسن ورغم ذلك فالشاعر راض كل الرضا أن يرد ماء تلك طبيعته ومراراته وكراهة طعمه لطول ركونه،وليس ذلك استعذابا له؛ولكن لأن ذلك هو السبيل والطريق الأوحد الذي يوصله إلى بغيته حيث الكرامة، وحيث الماء العذب النمير،وذلك ما كشف عنه قوله في الشطر الثاني" إلى حيثُ ماء المكرُماتِ نميرُ"، ويستنبط من وراء هذا البيت بعد نظر الشاعر فهو يتجرع الماء الآسن غصصا،ولا يكاد يسيغه أملا في الماء المعين الصافي .

وما صرح به الشاعر في قوله السابق " إلى حيثُ ماء المكرُماتِ نميرُ" هو غايته من هذا الرحيل المر ، ويعد قوله ذاك كناية عن الراحة والعزة والغنى والحظوة. والحق أن الشاعر قابل بين هاتين الكنايتين اللتين أفصحتا عن طبيعة رحلته والغاية منها، ولا يخفي أن المقابلة أسلوب من الأساليب المحببة إلى النفوس حين يقود إليها الطبع، فترد في الكلام سمحة منسابة، ولعل من أسرار حسنها هذا أنها تعين على تجلية الحقائق وإبراز معادنها، كما أن لها تأثيرها في الكلام ذلك الذي يجرى معها دائما، وهذا ما تجده في جمع المتناقضات، وتجاورها وتضاربها في العبارة والنفس من توتر وإثارة .... وهذه الخصوصية تعطى الأسلوب قدرة على الإيقاظ وصيرورة الحس، كأنه يكون مستفزا ومثارا حين يحسب ما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات، وهو يثبت على قممها المتغايرة والمتناقضة"(١) وهل هناك تناقض أبرز من ماء المفاوز الآسن ، وماء المكرمات

جفال :١٧٨/٤- دار إحياء التراث العربي بيروت- ط أولى- ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

(١) ينظر قراءة في الأدب القديم : ٢٨٦- ٢٨٨.

العذب النمير الرقراق ؟! هذا وقد ساق الشاعر ما ساقه في هذا البيت من طبيعة رحلته والغاية منها بطريق إيجاز القصر.

وقوله :

وأختلِسُ الأيامَ خُلْسَةَ فاتِكٍ إلى حيث لي من غدرهن خفيرُ

أتى موصولا بالبيت السابق فبينهما توسط بين الكمالين ، حيث اتفقت الجملتان في الإنشائية لفظا ومعنى ، وإن كان البيت السابق قد استهل بالأمر " دعيني " فقد حذف في هذا البيت الفعل السابق نفسه والتقدير " ودعيني أختلس....الخ البيت. ففي الكلام إيجاز بالحذف كشف عن ذروة اشتداد موقف الوداع والإقناع به . ففي هذا الإيجاز ملحظ نفسي دقيق أبان عن تلك النفسية القلقة المتوترة المعذبة . والشاعر يصور بدقة بارعة ما فيه من صراع حاد بينه وبين الأيام وتقلبها وغدرها به ، كشف عن جانب من هذا التصوير الفعل " أختلس " بمعنى أستلب ، فهو يريد أن يستلب الأيام استلاب مصارع شجاع فاتك بها إلى من عنده أمان ومنعة ، يجيره من أن تغدر به تلك الأيام.

والتعبير بالمضارع" أختلس " يكشف عن التجدد والاستمرار لهذا الفعل لدى الشاعر مع تلك الأيام القاسية عليه وعلى أسرته أشد القسوة ، ففي هذا التجدد والاستمرار مزيد من الصراع والآلام للشاعر، وكأنه يستعذب قسوة الأيام وإيلامها في سبيل الوصول إلى من يجيره من قسوتها وغدرها وعذاباتها.

وقد اتكأ ابن دراج على التشبيه بالمصدر حيث قوله " وأختلِسُ الأيامَ خُلْسَةَ فاتِكٍ" وفي التشبيه بالمصدر إرادة المبالغة ، وكشف عن مدى قوته وشدة بأسه، والإضافة في قوله " خُلْسَةَ فاتِكٍ" أتت مصورة هذه الشدة وذاك البأس أتم تصوير، وفي إيثار صيغة اسم الفاعل" فاتِكٍ" دلالة على دوام وثبات شجاعته ومقدرته تلك. وقد أعانه التنوين فيه على إطلاق نغمات توحي بالشدة والبأس ، تلك التي أفصحت

عنها مفردات الشاعر في صدر البيت .

والشاعر ذو ثروة لغوية ووفرة في المفردات ، يبدو ذلك من اصطفائه الفعل " اختلس " دون " أستلب " مع اتفاقهما وزنا ، إلا أن الاختلاس هو أخذ الشيء مع كون الآخذ محارب ، أما الاستلاب فهو أخذ الشيء مع الهروب به مع كون المستلب غير محارب(١)؛ لأجل ذلك كان " أختلس " مصورا أتم تصوير ما عليه الشاعر من شجاعة وبأس ؛ لذلك جاء اسم الفاعل " فاتك " ليؤكد تلك الحقيقة أيما تأكيد .

ثم يفصح الشاعر في الشطر الثاني عن غايته من ترحاله واختلاسه الأيام إلى ما يجيره ويمنعه من غدرها له فقال"إلى حيث لي من غدرهن خفيرُ" وقد أعانه المجاز العقلي بإسناد الغدر إلى الأيام في قوله " غدرهن " أعانه في تأكيد قسوة المعيشة التي يحياها وأهله، فالأيام – كما هو معلوم – لا تغدر بل هي زمان للغدر .

ويتآذر مع المجاز العقلي في تأكيد قسوة الأيام وشدتها على الشاعر التقديم حيث قدم الجار والمجرور " من غدرهن " على المبتدأ المؤخر " خفير ".

ثم يختم الشاعر بيته مغازلا ومادحا ذاك العامري بقوله " خفير " أي مانع ومجير ، وقد أحسن الشاعر في ذلك أيما إحسان حيث اصطفي وزنا من أوزان المبالغة المشهورة عند النحاة وهو " فعيل " فهو من صيغ المبالغة ، وكأن ابن دراج يقول إن الإجارة والمنع من الشدائد والمكاره صار وصفا لذلك الممدوح كالطبيعة الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل ، وفي ذلك يقول السيوطي " وفعيل ، لمن صار له كالطبيعة "(٢)

---

(١) الفروق اللغوية : ٢٧/١.

(٢) همع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربية – تحقيق / عبد الحميد هنداوي

ثم يعلل الشاعر لزوجه أنه ما أقدم على هذه المشاق وتلك الأهوال إلا رغبة جامحة إلى المعالي وثمين العطايا فيقول :

فإنَّ خطيراتِ المهالِكِ ضُمَّنٌ لِرَاكِبِها أنَّ الجَزاءَ خَطِيرُ

وأتت "الفاء" تعقيبا على ما مر من الأبيات وقد أحكم الكلام بها إحكاما وربطه بها ربطا ، ثم أكد ما رمى إليه بـ" إن" و"اسمية الجملة" ليقرر حقيقة انفعلت بها نفسه ، ثم يحرص على إذاعتها وتقريرها في نفس زوجه كما أحسها مقررة أكيدة في نفسه.

وقوله "خطيراتِ المهالِكِ....الخ البيت " تعبير جرى على طريق الاستعارة المكنية ، حيث صور المهالك الخطيرة بإنسان يضمن معالي الدرجات من ارتفاع القدر والشرف والمنزلة ووفرة المال، ومن وراء تلك الاستعارة يلبس الشاعر زوجه أردية من الأمل والطمأنينة،أي إن كانت تلك المهالك الخطيرة ستضمن لنا العزة والشرف والمنزلة فعلام قلقك وخوفك إذن؟!

والإضافة في"خطيرات المهالك" أكدت تلك المعاني وقررتها.كما أن اصطفاء صيغة الجمع"خطيرات" أوحت بعظم ما خاضه وسيخوضه من أخطار. وكذلك في إيثار التعبير بـ "ضُمَّنٌ"على وزن" فُعَّلٌ"دون"ضامنات"مثلا طمأنة لفؤاد زوجه .

وبين قوله" لي" في البيت السابق"إلى حيث لي من غدرهن خفير"وبين قوله "لراكبها" في هذا البيت التفات من المتكلم إلى الغائب، وفي ذلك مزيد لفت للزوج ، والتعبير بالغائب كشف أيضا عن أن ضمان ركوب المهالك الخطرة العزة والمكانة ليس حكرا عليه،بل لكل من يركبها،وكأن ما أورده حقيقة كونية ثابتة ومن ثم يزيد ابن دراج من جرعات الطمأنينة والثقة والأريحية لحال زوجه . وبين"خطيرات"و"خطير"جناس ناقص كشف عن جرس موسيقي زاد البيت قوة

:٧٥/٣ – المكتبة التوفيقية – مصر – د. ت .

وترابطا، لاسيما وأن الشاعر بناه على لون بديعي آخر هو رد العجز على الصدر، فكان لهذا البيت من الجزالة والقوة والأسر ماله.

****

المبحث الثاني
وصف وتصوير مشهد وداع زوجه وطفله الرضيع. الأبيات(٩-١٦)

فيقول في أبيات تقطر أسى ولوعة :

ولَمَّا تَدَانَتْ للوداعِ وقد هَفَا (١) بِصَبْرِيَ منها أنَّةٌ (٢) وزَفِيرُ(٣)
تُنَاشِدُنِي عهدَ المَودَّةِ والهَوى وفي المَهْدِ مَبغُومُ (٤) النِّداءِ صَغيرُ
عَيِيٌّ (٥)بمرجوعِ الخِطَابِ(٦)ولَفْظُهُ(٧) بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبيرُ
تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّدَتْ له أَذْرُعٌ محفوفَةٌ (٨) ونُحُورُ
فكلُّ مُفَدَاةِ الترائبِ (٩) مُرْضِعٌ وَكُلِّ مُحَيَّاةِ المحاسن ظيرُ(١٠)
عَصَيْتُ شفيعَ النَّفْسِ فيه وقادَنِي رَوَاحٌ لِتِدْآبِ السُّرَى وبكورُ
وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ بي وهَفَتْ (١١) بهَا جوانِحُ (١٢)من ذُعْرِ الفراقِ تطيرُ

---

(١) هفا يهفو هفوا وهفوة ، والهفو : الذهاب في الهواء .السابق (هفا).

(٢) أنة : تأوه . السابق (أنن).

(٣) الزفير: أن يملأ الصدر غما ثم يزفلا به .السابق (زفر).

(٤) والمَبْغُومُ: الذى لا يرفع طرفه إلا إذا سمع بغام أمه .السابق (بغم).

(٥) عَيِيَ في المنطق عيا : حصر. السابق (عيا).

(٦) مرجوع الخطاب : جوابه ور ده.السابق(رجع).

(٧) هناك رواية " ولحظه " بدلا من " ولفظه " .

(٨) محفوفة : تطوف به وتعكف عليه .لسان العرب (حفف).

(٩) الترائب : عظام صدر المرأة .السابق(ترب).

(١٠) الظئر المرضعة ، وكذلك التي ترضع غير ولدها.السابق(ظئر).

(١١)هفت الشيء هفتا : تطاير لخفته .السابق (هفت).

(١٢)الجوانح :أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر والضلوع مما يلى الظهر؛ سميت بذلك لجنوحها على القلب.السابق(جنح).

لـــئِنْ وَدَّعَـــتْ مِنِّـــي غَيُـــوراً فإنَّنِـــي عَلَى عَزْمَتِي من شَجْوِهَا (١) لَغَيُورُ

بعد أن انتهى الشاعر من محاولة إقناع زوجه بالرحيل، وتجشم المخاطر والأهوال ، بغية السؤدد والمكرمة ، شرع في تصوير مشهد الوداع والفراق لزوجه وطفله الرضيع ، فيقول :

ولَمَّـــا تَـــدَانَتْ للـــوداعِ وقـــد هَـــفَا بِصَـــــبْرِيَ منهـــا أنَّـــةٌ وزَفِيـــرُ

تُنَاشِـــدُنِي عـــهدَ المَـــودَّةِ والهَـــوى .....

فنلحظ أن ابن دراج وصل قوله " ولمَّا تدانت .....الخ البيت " بما قبله للتوسط بين الكمالين، حيث اتحد البيتان في الخبرية لفظا ومعنى ، ولم يكن معهما سبب يقتضى الفصل بينهما، فهناك مناسبة قوية ورابطة جمعت بينهما في المعنى

كما نلحظ أنه بدأ في تصوير مشهد الوداع الباكي الحزين بأسلوب الشرط حيث قال:"ولَمَّا تَدَانَتْ للوداعِ.....تُنَاشِدُنِي عهدَ المَودَّةِ والهَوى"وعند أدنى تأمل لمادة فعل الشرط " تدانت"مع ذكر كلمة "الوداع" يشعرك بمزيد الأسى واللوعة قبل مجيء الجواب .

وفي الكلام حذف للمسند إليه ، إذ التقدير " ولما تدانت هي للوداع ، والسياق والمقام يعضدان ذلك الحذف فالحزن والأسى قد بلغا بالشاعر ما بلغا، يؤكد ذلك الجملة الحالية "وقد هَفَا بِصَبْرِ يَمنها أنَّةٌ وزَفِيرُ" فقد كان الشاعر محتفظا ببقية من الصبر لأجل تلك اللحظة لحظة الوداع العصيبة، إلا أن تأوها وزفيرا صدرا من زوجه أذهبا عنه ما كان محتفظا به من الصبر،فطاش لبه واعتصر فؤاده . وفي إسناد إذهاب الصبر إلى الأنة والزفير مجاز عقلي علاقته السببية ، وفي ذلك ما يؤكد ويصور شدة حزن الزوج على فراق زوجها .

(١) حزنها . السابق(شجا).

والشاعر حريص على إبراز وتأكيد تفاصيل لحظات الوداع من أجل ذلك عبر بـ" قد" التي أفادت التحقيق .

وفي اصطفاء كلمة " هفا " دون "ذهب" – مثلا- دقة تعبيرية أفصحت عن ثروة الشاعر اللغوية الثرة ، ففي اللسان نجد " هفا " بمعنى :الذهاب في الهواء(١) وليس مجرد الذهاب فحسب ، فما يذهب فحسب قد يعود مرة أخرى ، أما الذهاب في الهواء هو ذهاب بلا عودة ولا رجعة ، وهذا مما يستفاد منه نفاد صبره ، وعدم تجلده في هذا الموقف الباكي الحزين.

والتقديم في " بِصَبْرِ يَمنها" على قوله " أنَّةٌ وزَفِيرُ" أوحى بحاجته الشديدة إلى الصبر في هذا المقام ، وكيف له ذلك وقد أطاحت الأنة والزفير به ؟! والتنوين في " أنَّةٌ" أفصح عن عظم هذه الأنة ، كما أعانه على إطلاق نغمات الأسى والحسرة التي ألمت به .

والتعبير بالمصدر" زَفِيرُ" أبان عن براكين من الغم تسكن فؤاد زوجه من جراء إعلان رحيله عنها .

وقوله "وقد هَفَا بِصَبْرِ يَمنها أنَّةٌ وزَفِيرُ" اعتراض بين فعل الشرط في أول البيت "ولَمَّا تَدَانَتْ للوداعِ" وبين الجواب في أول البيت الثاني" تُنَاشِدُنِي عهدَ المَودَّةِ والهَوى" أكد به– بما حواه من نكات بلاغية أخرى – أن حب زوجه له منقطع النظير، كما أكد به مدى حسرته وكمده لرحيله عنها وبعدها عنه. وقد استهل الشاعر جواب الشرط بالمضارع "تناشدني" تأكيدا وتقوية لرابطة الحب التي بينهما، كما أبان عن استمرار وتجدد مناشدتها إياه بتذكر مودتها وهواها.ولا يخفي أن في اصطفاء الفعل" تناشدني"دون غيره يؤكد ما سبقت الإشارة إليه من وقوف الشاعر على ثروة لغوية ومعجم ثر يمدانه بالمفردة المناسبة في السياق والمقام المناسبين؛

(١) مادة : هفا .

فالمناشدة من النشيد: وهو الصوت،أي سألتك بالله برفع نشيدي أي صوتي(١)، وفي ذلك ما فيه من وصول مشهد الوداع إلى ذروته. واصطفاء كلمة "عهد" هنا مما يلقى جلالا ومهابة على ذلك الرباط الذي بينهما. وإضافة العهد إلى المودة يؤكد ويقرر تلك المعاني .

ومن نافلة القول أن في بناء مشهد الوداع على الشرط والجواب ما يضفي على المعاني من الصدق والتأكيد ما يضفي .

ويصور لنا الشاعر جانبا آخر من مشهد الوداع ، فيتحدث عن رضيعه فيقول :

..... وفي المَهْدِ مَبغُومُ النِّداءِ صَغيرُ

قوله " وفي المهد "الواو للاستئناف ، فالكلام هنا عن جانب جديد من مشهد ذلك الوداع المفعم بالشجو والأحزان .

وتقديم الجار والمجرور فيه إشارة قوية إلى بيان حال هذا الصغير فمازال في مهده لم يدر ما يدور حوله بعد . وأتى المبتدأ المؤخر" مَبغُومُ النِّداءِ" ليؤكد ما أبان عنه الجار والمجرور المتقدم ، فهذا الطفل لا يرفع طرفه إلا إذا سمع صوت أمه . وفي قوله "مبغوم" مجاز عقلي علاقته الفاعلية ،حيث أسند اسم المفعول " مبغوم " إلى ضمير الطفل الرضيع ، والطفل لا يكون مبغوما للنداء بل باغما له ، وقد كشف ذلك المجاز عن ضعف حال هذا الصغير، والشاعر قاصد إلى إظهاره بهذا الضعف والوهن لتزداد لحظات الوداع تأججا وأوارا .وقد أكدت الإضافة " مبغوم النداء" تلك المعاني وقررتها.

والشاعر يبالغ في وصف طفله بالصغر حتى لكأن ما ساقه لم يكفه،فجاء بالوصف "صغير" ليؤكد ما يرمى ويصبو إليه .

---

(١) اللسان : نشد .

ومازالت الأوصاف تترى على ذلك الصغير فيقول ابن دراج :

عَيِـــيٌّ بمرجـــوعِ الخِطَـــابِ ولَفْظـــهُ بِمَوْقِـــعِ أَهْـــوَاءِ النُّفُـــوسِ خَبيـــرُ

تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّـدَتْ لـــــه أَذْرُعٌ محفوفَـــــةٌ ونُحُـــــورُ

البيت الأول فصل عن سابقه لما بينهما من كمال الاتصال فاللحمة بينهما غاية في الوضوح والبيان. وقد حذف المسند إليه إذ التقدير" هُوَ عَيِيٌّ "والحالة الشعورية الحزينة التي يحياها الشاعر في هذا الموقف تجبره على هذا الحذف ، وهل هناك ضيق للمقام يعدل وداع أب فلذة كبده ،وهو لم يزل بعد طفلا في مهده؟! فهو عاجز عن فهم الخطاب، ومن الرد عليه،وفي مقابلة هذا العجز وذاك العِيُّ في فهم مردود الكلام،يثبت لطفله أن له لحظا خبيرا بمواقع أهواء النفوس. وتلك المقابلة بين عيه في فهم مرجوع الخطاب،وبين لحظه الخبير في فهم خبايا القلوب والنفوس أضفت على الكلام رونقا وتماسكا، بعد إبانتها عن حالة التردد والتناقض التي يكابدها الشاعر في هذا الموقف. وقد خرج من رحم تلك المقابلة الكناية عن القلوب والأفئدة ، فهي لا غيرها موقع أهواء النفوس.

وتقديم الجار والمجرور وما استتبعه من إضافة في قوله "بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ" على المبتدأ " خبيرُ" ليبين حال اختصاص طفله بذاك الشأن، وهو الوقوف على ما استودعته تلك النفوس من مشاعر وأنات وحسرات وزفرات ، ففيه قصر للصفة على الموصوف قصرا ادعائيا مبنيا على المبالغة .

هذا علاوة على ما في ذلك التقديم من"التوازن الصوتي الذي يشارك مشاركة فعالة في تحريك القلوب وبعث خوافي الإحساس والشعور"(١) لاسيما في مثل تلك المواقف المحتدمة المشاعر المضطربة الأحاسيس .

والحق فما صوره ابن دراج في هذا البيت لطفله وما حواه من لمسات

(١) خصائص التراكيب : ١٥٠.

بلاغية أخرى يبرز ذلك الجو المفعم بالحزن والأسى، ولعل مما يزيد من ذلك تكرار حرف "الواو" خمس مرات ، وما يستتبعه من ضم للشفتين عند نطقه فتلك الحركة للشفتين عند نطق ذلك الحرف – مع تكرارها خمس مرات – تحكى ما تحكى من الحزن والأسى .

كما أن إطلاق قافية البيت " خبيرُ" يؤكد تلك المعاني ويعضدها. ويطيل الشاعر وقفته مع طفله في ذلك المشهد الباكى فيقول :

تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّدَتْ لـه أَذْرُعٌ محفوفَةٌ ونُحُورُ

وقد فصل هذا البيت عن سابقه لما بينهما من كمال الاتصال ، إذ لم يزل حديثه منصبا عن طفله ، ويبدو أن ما أفاضه على صغيره من وصف دقيق مفعم بالحزن والأسى جعل هذا الصغير يرتقى مرتقى صعبا فيقول عنه " تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ" فقد صارت القلوب الممنوعة – وهو كناية عن قساوتها – سكنا ومحلا له وفي ذلك إشارة قوية لما عليه حال ذلك الصغير من جراء وداع وفراق أبوه له ، ما دعا أصحاب تلك القلوب القاسية أن تحتويه وتجعله في سوداوات قلوبها.

وعبر بالماضي " تبوأ " لثبوت وتقرير ذلك الأمر، وفي التعبير بـ " القلوب "مجاز مرسل علاقته الجزئية ، إذ لهذا الجزء وهو القلب اتصال وثيق بالمعنى المراد ، فالشاعر يريد تقرير أن حال صغيره عند فراق والده له جعل أصحاب القلوب الجامدة القاسية ترق لحاله فتكون له موطئا وسكنا، ولا عجب في ذلك إذ السياق سياق حزن وكمد وأسى وإشفاق وترحم . وقوله " ومُهِّدَتْ له أَذْرُعٌ محفوفَةٌ ونُحُورُ" أتى موصولا بقوله السابق " تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ" لما بينهما من اتفاق ، حيث اتفقت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى. ومن ثم كان الوصل للتوسط بين الكمالين ، وهذا الوصل أوحى بما رزق به صغيره من حفاوة وعطف منقطعي النظير، حيث انتزع حب أصحاب القلوب القاسية ،واستحالت الأذرع والنحور له

مهادا.

وقد عبر الشاعر في قوله "ومُهِّدَتْ" بالبناء للمجهول لعدم تعلق الغرض بالفاعل – أي بمن قام بالعطف والحنو على صغيره،إذ غرضه ثبوت حصول العطف والحنو له فحسب، ومما لا يخفي هنا تجلي الدقة التعبيرية لابن دراج ، بدا ذلك في ترتيب ورود ذكر الأفعال ، فبعد ذكره الفعل "تَبَوَّأَ" الذي كشف عن حلول صغيره عند أهل تلك القلوب القاسية أتى بالفعل" مُهِّدَتْ" والمهد هو الفراش ، ولا يقال للفراش مهاد إلا إذا كان وثيرا وطيئا سهلا "(١)، والمعنى : أن صغيره بعد أن أنزله أصحاب القلوب القاسية مكانة في قلوبهم ، صارت أذرع ونحور مهادا وثيرة له. وقد أفصحت صيغتا الجمع في كل من" أَذْرُعٌ"و"نُحُورُ" عن كثرة العاطفين

والعناية بالصغير بلغت الغاية أبان عن ذلك وصف الأذرع بأنها "محفوفَةٌ" أي أن هذه الأذرع تحدق بصغيره وتطوف به وتعكف عليه.(٢) وعلى ذلك المعنى يكون في التعبير مجاز عقلي علاقته الفاعلية ، حيث أسند اسم المفعول "محفوفة" إلى ضمير "الأذرع" ، والأذرع لا تكون محفوفة ، وإنما تكون حافة لغيرها ولذلك جاء قوله تعالى "وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ...الآية"(٣) وفي ذلك كبير عناية لصغيره.

هذا وهناك رواية أخرى لتلك الكلمة هي "معقوفة " بدلا من " محفوفة" والمعنى حينئذ ،أذرع منحنية ملوية.(٤) وذلك هو هيئة الأذرع عند حملها ذاك الطفل ، والحق أن الرواية الأولى " محفوفة" أرق وأجمل من الثانية لما تضمنته من

---

(١) انظر لسان العرب : مهد .

(٢) السابق : حفف .

(٣) سورة الزمر من الآية : ٧٥.

(٤) لسان العرب : عقف .

معان سامية تتناغى والغرض المسوق له الكلام .

وفي قوله"ونحور"حذف للمسند تقديره"ونحور كذلك"وإذا كان وصف الذراع بأنها محفوفة كشف ما كشف عن سامق المعاني ، فكيف حينما توصف النحور بذلك ، وهى أحرى وأولى ؟!

وتكمن وراء ذلك الحذف العديد من النكات البلاغية ، حيث إنها تتزاحم ولا تتعارض فمن أسرار ذلك الحذف ضيق المقام بسبب التحسر لاضطراره الرحيل مخلفا زوجه وطفله الذي لم يزل في مهده، وكان الحذف محافظة على الوزن ، واحترازا عن العبث بناء على الظاهر.(١) بمعنى أن الكلمة التي أقيم عليها الدليل وفهم المعنى على أساس وجودها بفحوى سياق الكلام يعتبر عبثا – من الناحية البلاغية – ذكرها ؛ لأن المقام يقتضى حذفها عند قيام الدليل عليها.

ثم يأتي قوله:

فكلُّ مُفَدَاةِ الترائِبِ مُرْضِعٌ وَكُلّ ِمُحَيَّاةِ المحاسن ظيرُ

أول ما يلحظ على هذا البيت ذلك الربط الرائع بينه وبين سابقه ، وكان هذا الربط بـ" الفاء" ، وتكمن روعة الربط حيث جعل هذا البيت بمثابة نتيجة طبيعية مسلما بها .الشاعر في هذا البيت يسجل حقيقة مؤداها أن صغيره غدا مادة تستدر العطف والحنو ، بل بالغ في ذلك حتى جعل من لا يتوقع منهن العطف والحنو يبادرن إلى إرضاعه والإشفاق والحنو عليه فقال "فكلّ ُمُفَدَاةِ الترائِبِ مُرْضِعٌ" ولما كان هذا البيت بمثابة النتيجة لسابقه أتى الربط بـ " الفاء" التي كشفت عن سرعة ترتب تلك الأمور.

و"مفداة الترائب" كناية عن تلك المرأة المنعمة المترفة التي افتدى عظام صدرها، فمن ثم هي تنأي بنفسها عن الإرضاع ،إلا أن ما أضفاه الشاعر على

(١) المطول لسعد الدين التفتازاني : ٦٨– دار سعادت– ١٣١٠هـ

طفله من صفات جعل مفداة الترائب له مرضعا.

وتقابل هذه الكناية كناية أخرى في قوله "وَكُلِّ مُحَيَّاةِ المحاسن ظيرُ" أي كل من شهد لها بالحسن البارع – وهذه عادة لا ترضع ، ربما حفاظا على دوام حسنها– هي مرضع أيضا لابنه ،ولعل القافية اضطرته لاستبدال"مرضع" بـ" ظير" وقد وصل الشاعر بين شطري البيت لما بينهما من ترابط وثيق في المعنى علاوة على اتحادهما في الخبرية لفظا ومعنى .

وأضفي التعبير بـ " كل "في شطري البيت مزيدا من المبالغة التي أمها الشاعر ورمى إليها .ثم يأتي قوله :

عَصَيْتُ شفيعَ النَّفْسِ فيه وقادَنِي رَوَاحٌ لِتِدْآبِ السُّرَى وبكورُ

وقد فصله عن سابقه لما بينهما من كمال الانقطاع بلا إيهام، إذ ليس ثمة علاقة أو مناسبة بين ما ذكره عن حال طفله وبين موقفه تجاهه حيث عصى فيه شفيع النفس، فمن هنا كان الفصل بينهما.

وفي قوله "عَصَيْتُ شفيعَ النَّفْسِ فيه " استعارة تبعية حيث صور عدم الاستجابة للبقاء بجوار صغيره بالعصيان ، وهو تعبير حي موح بما يموج داخل الشاعر من صراع نفسي هل يستجيب لذاك الصغير ويبقى بجواره ، أم يكظم مشاعره ويمضى قدما لما أراد ؟ وقد أكد الشاعر حدوث ذلك،حيث كشف عن ذلك استعمال الماضي" عصيت".وأتت الكناية عن القلب في قوله"شفيعَ النَّفْسِ" متناغية مع الاستعارة في البوح عما يمور داخل نفس الشاعر.

وتقديم " شفيعَ النَّفْسِ" على الجار والمجرور" فيه" يوحى بشدة تعلق هذا المقدم بالحدث ، وكذلك للفت الانتباه إليه وحصر الاهتمام به.

وقوله "وقادَنِي رَوَاحٌ لِتِدْآبِ السُّرَى وبكورُ" أتى موصولا بما سبق للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى ، وبينهما ما بينهما

من تواؤم وتناغ. وأتى هذا القول من الشاعر من خلال أسلوب استعاري رائع عن طريق الاستعارة المكنية ، حيث صور كلا من الرواح والبكور بإنسان يقوده إلى ملازمة السير والترحال . فقد خص ابن دراج القيادة للرواح والبكور مع أنهما من المعنويات وفي ذلك تشخيص يبرز به الشاعر قوة الدافعية والانقياد إلى الترحل وترك أعزما لديه من ولد وزوج .

وفي اصطفاء الفعل " قادني " دون غيره أبان عن ضعف الشاعر أمام الترحال فقد غدا بمثابة أسير يقاد ، وفيه من الضعف والتسليم ما فيه ، ففي اللسان قاد البعير اقتاده ، معناه : جره خلفه.(١)، وكأن الشاعر هنا يصور لنا نفسه بأنه يجر جرا إلى ذلك الترحال.

وصيغة المبالغة " تدآب" على وزن " تفعال" وهى من الأوزان غير القياسية.(٢) كشفت عن المبالغة في ملازمة السير وهذا ما يقوى ويؤكد ما رمت إليه الاستعارة وصيغة الفعل " قادني".

والشاعر في حالته تلك يبرز لنا شيئا عن تناقضه النفسي بين إرادة البقاء وبين دفعه وجره جرا إلى الترحال، يبرزه لنا من خلال الطباق بين "رَوَاحُ"و"بكورُ" وإن كان الرواح يضاده الغدو، فلعل القافية هي التي قادته إلى ذلك كما قاده الرواح والبكور إلى الترحال.

والحق فإن هذا البيت يصور تصويرا دقيقا الصراع النفسي الذي يحياه ابن دراج فهو موزع بين عصيانه قلبه في البقاء مجاورا لابنه ، وبين ما يجره جرا ويقوده قودا للترحال.

---

(١) اللسان : قود.

(٢) المعجم المفصل في علم الصرف أ/ راجى الأسمر – مراجعة د/ إميل بديع يعقوب : ٢٩٤– دار الكتب العلمية– بيروت– ط أولى ١٤١٣ هـ– ١٩٩٣م

ثم ينتقل الشاعر بنا من حالة الصراع النفسي إلى الحديث عن زوجه قائلا:

وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ بي وهَفَتْ بهَا جوانِحُ من ذُعْرِ الفراق ِتطيرُ

فقد أتى الوصل بين هذا البيت وسابقه للتوسط بين الكمالين حيث اتحدا في الخبرية لفظا ومعنى ، كما اتحدا لحمة من خلال أن كليهما يخرج من مشكاة واحدة ألا وهى الحديث عن وصف حالة الفراق وصراع الوداع .

وقد استهل ابن دراج حديثه عن فراق زوجه بالاستعارة المكنية في قوله "وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ بي" فهو رغم ما فيه من صراع نفسي حاد بين البقاء والرحيل إلا أن توقه وشوقه إلى مقصده من الترحال لمقابلة ممدوحه يغلب عليه وفي ذلك تلميح قوي بمكانة ممدوحه لديه.

وقد صاغ ذلك كله من خلال الاستعارة بالكناية ، حيث شبه الشوق بطائر ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو قوله "جَناحُ"، وفي إثبات لازم المشبه به"جَناحُ" للمشبه وهو الشوق استعارة تخييلية أوحت بمدى ما يكنه الشاعر لممدوحه من حب وشوق مفعم بمشاعر الحزن والفراق للولد والزوج .

وهكذا تجلى لنا كيف أفرغ ابن دراج على الصورة البيانية السابقة من فيض حسه وشعوره الجارف إلى الرحيل حيث ممدوحه، إلى درجة استحالة الأشياء المعنوية " الشوق "إلى أشياء محسة ومجسدة ، وبذا كانت الاستعارتان المكنية والتخييلية خير معين أعانه في البوح والكشف عما يكنه من شوق وحب لممدوحه.

ويبدو الإيجاز بالحذف جليا في قوله "وطارَ جَناحُ الشَّوْق ِبي" وتقدير المحذوف :إلى ممدوحى ، والغرض من الحذف يعود إلى شهرة ومكانة الممدوح لديه فمن ثم جعله كأنه أمر عام معلوم لا يحتاج إلى أدنى إشارة ، وقد يكون الحذف لضيق المقام بسبب إبداء سعادته الغامرة إلى الذهاب حيث الممدوح ، فمن ثم لم

يقو على ذكره.

وهذا الذي ذكره ابن دراج من طيران جناح الشوق به إلى ممدوحه يصف لنا من خلاله حاله هو ، ثم يصف لنا حال زوجه فيقول"وهَفَتْ بهَا جوانِحُ من ذُعْرِ الفراق ِتطيرُ " أي أن زوجه من شدة خوفها من فراقه إياها وابنها تطير منها ضلوعها. فابن دراج يقابل بين حالين ، حاله المفعم بالشوق إلى الرحيل حيث الممدوح فكاد يطير شوقا ، وحال زوجه التي ألم بها الخوف الشديد من فراقه لها وابنها فتكاد تطير ذعرا وفرقا، ويالها من مقابلة بديعة لتلك المفارقة التي أبانت عن عظيم التناقض بين حالين ينبغي أن يكونا – دائما – متوائمين متناغيين وهذا كله يصب في تقوية الغرض من القصيدة ، فالشاعر يريد أن يوقف ممدوحه على ذلك الصراع النفسي الحاد ، وتلك المفارقات الصعبة التي لا تتحملها الجبال الشم الرواسي ، أما الشاعر المحب لممدوحه فلم يأبه بكل هذا وأتاك شوقا وإجلالا.

وتنكير"جوانح "أتاح له أن يصفه بقوله"من ذُعْر ِالفراقِ تطيرُ"،وتقديم الجار والمجرور"من ذُعْر ِالفراقِ" على الفعل " تطيرُ" أكد حصول الخوف والذعر ، ولضرورة الشعر.

والإضافة "ذُعْرِ الفراقِ"كشفت عن هول الموقف وشدته،وبذا تتآذر الأساليب من تنكير،وتقديم،وإضافة،ومن قبلها المقابلة في إبراز تلك المفارقة العجيبة،والحق فإن المقابلة أسلوب من الأساليب التي تعطى الأسلوب قدرة على الإيقاظ وصيرورة الحس، كأنه يكون مستفزا ومثارا حين يحسب ما وراء هذه المتناقضات من صراعات وتجاذبات، وهو يثبت على قممها المتغايرة والمتناقضة"(١).

هذا وقد أضفي الترديد بين"جناح"و"جوانح"جرسا موسيقيا وبداعة تلفت النظر وتشد الانتباه لاسيما في مثل ذلك الموطن الموحى المؤثر. ثم يزداد الموقف

(١) ينظر: قراءة في الأدب القديم : ٢٨٨.

حدة وتوترا فيقول ابن دراج مستهلا بالقسم المقدر:

لئِنْ وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُوراً فإِنَّنِي عَلَى عَزْمَتِي من شَجْوِهَا لَغَيُورُ

وبالنظرة العجلى نجد هذا البيت قد فصل عن سابقه ، وذلك بسبب كمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث اختلفت الجملتان فالأولى منهما خبرية لفظا ومعنى تمثلت في البيت السابق لهذا البيت وهو:

وطارَ جَناحُ الشَّوْقِ بي وهَفَتْ بهَا جوانِحُ من ذُعْرِ الفراقِ تطيرُ

والجملة الثانية- على اعتبار أن ههنا قسما محذوفا- إنشائية لفظا ومعنى، وهنا إيجاز بالحذف دعت إليه حال الشاعر التي ضاقت عليه نفسه،وربما ضاقت عليه الأرض بما رحبت، فحذف جملة القسم ،فهو قسم مقدر حيث حذفت وجوبا إذ كان حرف القسم هنا"اللام"(١)وهكذا اتخذ ابن دراج من الأسلوب الإنشائي غير الطلبي متمثلا في القسم المقدر متكأ لإفراغ ما تحمله نفسه من شدة غيرته على زوجه،وقد أكد تلك المعاني بذاك القسم المقدر ، والذي دل عليه" اللام"مع"إن"و"اللام"المفتوحة في جواب القسم" لغيور".وهكذا أبرز القسم المقدر مدى وفاء الشاعر وغيرته على زوجه، وهذا معنى جليل أبرزه هذا النوع من الإنشاء على خلاف ما ذهب إليه البلاغيون من أن هذا النوع من الإنشاء يعانى من قلة المباحث البيانية المتعلقة به ،لذا أهملوا دراسته والوقوف عنده .

(١) يقول صاحب المغنى " وحيثما قيل " لأفعلن" أو "لقد فعل " أو " لئن فعل" ولم تتقدم جملة قسم ، فثمة جملة قسم مقدرة" مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري – تحقيق/ مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله:٢/٦٤٤– دار الفكر – بيروت– ط سادسة–١٩٨٥." والقسم المقدر: نوع من القسم تحذف فيه جملة القسم جوازا أو وجوبا ، فتحذف وجوبا إذا كان حرف القسم هو الواو، أو التاء، أو اللام ،وتحذف جوازا إذا كان حرف القسم هو الباء " ينظر النحو الوافي / عباس حسن :٢/٥٠٢– دار المعارف – الطبعة الخامسة عشرة– د.ت.

وكأن ابن دراج يقول " والله لئن ودعت ....الخ البيت" فإننا نجد " إن" شرطية جازمة و" ودعت" فعل ماض مبني على السكون في محل جزم فعل الشرط و"اللام" في قوله " لغيور" واقعة في جواب القسم؛ لأن القسم تقدم على الشرط فكان الجواب له.

والتعبير بالماضي دل على تأكيد وتحقق التوديع،فهو أقرب إلى القطع بالوقوع.(١) وقوله "وَدَّعَتْ مِنِّي غَيُوراً" جاء على سبيل التجريد ؛ وذلك لإفادة المبالغة في شدة غيرته بادعاء كمال تلك الصفة فيه ، حتى كأنه بلغ من الاتصاف بتلك الصفة مبلغا يصح أن ينتزع منه موصوف آخر متصف بتلك الصفة. فالغيرة عنده كأنها طغت وفاضت بمثيله في الغيرة ؛ وذلك لقوتها وشدتها. وهذا يصب فيما يرمى ابن دراج من ورائه لحبه المفعم لزوجه وصعوبة موقف الوداع، والتنوين في" غيوراً" أعانه على إطلاق نغمات الأسى والحسرة التي تسيطر على سياق التوديع والترحل.

وقوله" فإنَّنِي عَلَى عَزْمَتِي من شَجْوِهَا لَغَيُورُ" أتت " الفاء" لربط الشرط بالجزاء ، كما أنها صورت العجلة والتتابع السريع لتلك المعاني الحبيسة في صدر ابن دراج.

وقوله " على عزمتى " أتى معترضا بين ثنايا جواب الشرط ، إذ الكلام بدونه سيكون " وإنني من شجوها لغيور " بيد أن هذا الاعتراض كان لا بد منه من شاعر زوج محب وفِيٍّ كابن دراج ، فقد كشف اعتراضه هذا عظيم مكانتها وسموها لديه ، وهذا ما يرفع من أسهم الحب والود الذي بينهما لاسيما وهو على أهبة الاستعداد والعزم على الرحيل .

(١) الإيضاح في علوم البلاغة- الخطيب القزويني: ٨٨ – دار إحياء العلوم – بيروت- ط الرابعة، ١٩٩٨.

وفي مجيء الاعتراض بين طيات جواب الشرط ما يكشف عن متابعة واعية من الشاعر ، وبصر جيد للنفوس ، وكيف يصل إليها من أقرب طريق.

وكيف لا يكون ابن دراج ذو بصر جيد للنفوس ، وذو متابعة واعية وقد قال عنه الثعالبي " كان بصقع الأندلس كالمتنبي بصقع الشام، وهو أحد الشعراء الفحول ، وكان يجيد ما ينظم ويقول"؟!(١)

وفي الكلام إيجاز بالحذف في قوله" على عزمتى" أي :الرحيل ، وسر ذلك الحذف ضيق المقام واحتدام الحزن والأسى بالنفوس ، وأتت الإضافة " عزمتي" تقوية وتأكيدا على عزمه الرحيل والتوديع.

وفي اصطفاء كلمة " شجوها " دون " حزنها " مع اتفاق الوزن والموسيقى ليؤكد على شاعرية مفعمة بالشعور ملهمة بالتعبير، فالشجو – كما جاء في اللسان – "الهم والحزن "(٢)أما الحزن فهو ضد السرور والفرح ، لذا آثر شاعرنا اصطفاء " شجوها" دون " حزنها "(٣)

والتقديم في قوله " من شجوها لغيور" حيث قدم الجار والمجرور" من شجوها" على " لغيور " فيه ما فيه من بيان حال اختصاصها بالهم والحزن والشجى ،كما نلمح فيه تلطف الشاعر بزوجه والإفصاح لها عما يحزنها ويشجيها وأن ذلك لم ولن يغيب عن باله البتة. كما أن التقديم ضروري مراعاة للوزن والقافية. و"اللام" في قوله " لغيور " للتأكيد .

ويبرز لون بديعي تمثل في الترديد والتصدير حيث وردت كلمة "غيورا" في

---

(١) يتيمة الدهر للثعالبي – تحقيق الشيخ/ محمد محيي عبد الحميد :٤٣٨/١ – دار المعارف بمصر– ط سابعة ١٩٧٩م.

(٢) مادة: شجا.

(٣) السابق : مادة حزن .

حشو المصراع الأول ووافقت كلمة " لغيور" وهى آخر كلمة في المصراع الثاني، وقد كان لذلك صداه في إحداث جو موسيقي للبيت يتناغى والغرض المسوق له الكلام ، واصطفاء صيغة المبالغة " لغيور" من مستتبعات التأكيد .

وفي مشهد الوداع نلحظ أن الشاعر قد اتخذ من الإيجاز سبيلا في وصف مشهد الوداع مع زوجه حيث منحها بيتا وشطر بيت إذ قال :

ولَمَّا تَدَانَتْ للوداعِ وقد هَفَا بِصَبْرِيَ منها أتَّةٌ وزَفِيرُ

تُنَاشِدُنِي عهدَ المَودَّةِ والهَوى .....

بينما قد اتخذ من الإطناب مطية في وصف مشهد الوداع مع طفله في مهده ، إذ منحه أربعة أبيات وشطر بيت حيث قال:

..... وفي المَهْدِ مَبغُومُ النِّداءِ صَغيرُ

عَيِيٌّ بمرجوعِ الخِطَابِ ولَفْظُهُ بِمَوْقِعِ أَهْوَاءِ النُّفُوسِ خَبيرُ

تَبَوَّأَ ممنوعَ القلوبِ ومُهِّدَتْ له أَذْرُعٌ محفوفَةٌ ونُحُورُ

فكلُّ مُفَدَاةِ الترائبِ مُرْضِعٌ وَكُلِّ مُحَيَّاةِ المحاسن ظيرُ

عَصَيْتُ شفيعَ النَّفْسِ فيه وقادَنِي رَوَاحٌ لِتِدْآبِ السُّرَى وبكورُ

وفي ذلك دلالة طبيعية على غلبة عاطفته أبا على عاطفته زوجا ، وبذا يكون الإيجاز والإطناب جناحين اعتمد عليهما الشاعر فتناغيا في إبراز ما يكنه لزوجه وطفله .

المبحث الثالث

وصف رحلته إلى الممدوح وما عاناه فيها. الأبيات(١٧-٣٠)

حيث يقول :

ولــو شــاهَدَتْنِي والصَّــوَاخِدُ (١) تَلْتَظِــي عَلَــيَّ وَرَقْــرَاقِ(٢) السَّــرَابِ يَمُــورُ(٣)
أُسَــلِّطُ حَــرَّ الهــاجِرَاتِ إذا ســطا(٤) عَلَــى حُــرِّ وَجْهِــي والأصــيلُ هَجِيــرُ
وأَسْتَنْشِقُ النَّكْبَاءَ (٥) وَهْيَ بَوَارِحٌ (٦) وأَسْتَوْطِئُ الرَّمْضَاءَ (٧) وَهْيَ تفورُ
وللمَـوْتِ فـي عَـيْشِ الجبـانِ تَلـونٌ (٨) وللــذُّعْرِ فــي ســمع الجــرِئ صَفِيــرُ
لَبَــانَ لهــا أَنِّــي مِــنَ الضَّــيْمِ جَــازِعٌ وأَنِّــي عَلَــى مَــضِّ الخُطُــوبِ (٩) صَــبُورُ
أميرٌ عَلَى غَوْلِ (١٠) التَّنَائِفِ (١١) ما له إذا رِيــــعَ إلَّا المَشْرَفِــــيَّ وزيــــرُ

---

(١)الصيخد : عين الشمس سمي به لشدة حرها .السابق (صخد).

(٢)والرَّقْراقُ تَرْقُرُق السَّراب وكل شيء له بَصيص وتلأْلُؤ فهو رَقْراق .السابق(رقق).

(٣)يتحرك. السابق (مور)

(٤) أي صال وكثر عليه .السابق(سطا).

(٥)الريح الشديدة. السابق (نكب).

(٦)الرياح الشدائد التي تحمل التراب في شدة الهبوات .السابق(برح).

(٧)الرملة شديدة الحرارة .السابق(رمض).

(٨) المتغير الذي لا يثبت على خلق واحد. السابق(لون).

(٩) مض الخطوب : أي موجعها وشديدها .السابق(مضض).

(١٠)غاله غولا :أهلكه ، واغتاله: أهلكه وأخذه من حيث لم يدر .السابق(غول).

(١١)التنائف : جمع تنوفة ، وهى الأرض القفر ، والتنوفة: التي لا ماء بها من الفلوات ولا أنيس . السابق(نتف)،وعلى هذا فغول التنائف: أي الفلاة التي يغتال ويهلك من يمر بها ، من حيث لا يدرى الشاعر فهو كالأمير لهذه الفلاة المهلكة، وزيره سيفه وشجاعته فأنى يأتيه الهلاك .

وَلَوْ بَصُرَتْ بِى والسُّرَى جُلُّ[١]عَزْمَتِي وجَرْسِـــي (٢) لِجِنَّـــانِ (٣) الفَــلَاةِ سَــمِيرُ
وأَعْتَسِفُ [٤] المَوْمَاةِ[٥] في غَسَقِ الدُّجَى[٦] ولِلأُسْـدِ فــي غِيــلِ(٧) الغِيَــاضِ(٨) زَئِيــرُ الدُّجَى[٦]
وقد حَوَّمَتْ(٩) زُهْرُ النُّجُومِ كأنَّها كواعِـبُ فــي خُضْـرِ الحَـدَائقِ حُـورُ
ودارَتْ نُجُــومُ القُطْــبِ(١٠) حتَّــى كَأَنَّهَــا كُؤُوسُ(١١) مَهًا وَالَى(١٢) بِهِنَّ مُدِيرُ(١٣)
وَقَــدْ خَيَّــلَتْ طُــرْقُ المَجَــرَّةِ(١) أَنَّــهَا على مفرق الليل البهيم قتيرُ(٢)

---

(١) جل الشيء وجلاله : معظمه .السابق(جلل).
(٢) جرسى :صوتى السابق (جرس).
(٣) الجنان : جمع " جنان" وهو من يقابل الإنس من مخلوقات الله التي ترانا ولا نراها.السابق (جنن).
(٤) الاعتساف :ركوب المفازة وقطعها من غير قصد ولا هداية ولا طريق مسلوك .اللسان (عسف).
(٥) المفازة التي لا ماء ولا أنيس بها .السابق(موم).
(٦) غسق الدجى : الظلام الشديد المطبق .اللسان(غسق ، ودجا)
(٧) الغيل : الشجر الكثيف الملتف الذي يستتر فيه ، وموضع الأسد يسمى غيل .السابق(غيل).
(٨) الغيــاض :بكســر الغــين :جمــع غيضــة وهــى الأجمــة والموضــع يكثــر فيــه الشــجر ويلتف.السابق(غيض)
(٩) حوم الطائر يحوم حول الماء ويلوب إذا كان يدور حوله من العطش. السابق(حوم).
(١٠)القطب :كوكب بين الجدي والفرقدين يدور عليه الفلك ، وهو صغير أبيض لا يبرح مكانه أبدا....وتدور الكواكب عليه .انظر السابق (قطب)
(١١)كؤوس مها: أي كؤوس من البلور.
(١٢)تابع .السابق(ولى).
(١٣)المدير: اسم فاعل من أدار يدير، والمراد به هنا :الساقى الذي يدير الكؤوس على الشاربين.السابق(دور).

وثَاقِـــبَ عَـــزْمِي والظَّـــلَامُ مُـــرَوِّعٌ وقد غَضَّ(٣)أَجْفَانَ النُّجُومِ فُتُورُ
لَقَـدْ أَيْقَنَـتْ أَنَّ المُـنَى طَـوْعُ هِمَّتِـي وأَنِّـــي بِعَطْـــفِ العَامِـــرِيِّ جَدِيـــرُ
وأَنِّـــي بِذِكـــرَاهُ لِهَمِّـــيَ زَاجِـــرٌ وَأَنِّـــي مِنْـــهُ للخُطُـــوبِ نَذِيـــرُ

المتأمل في تلك اللوحة التي رسمها الشاعر يجد – من خلال ما ساقه من مشاهد مفزعة وصعاب، وفيافي مخيفة، وليل بهيم وجن وأُسْد – يجد قلقا مبيرا وانفعالا نفسيا خطيرا ألم بالشاعر وكاد أن يفتك به .

فالشاعر هنا يتحدث عن مشاهد الطريق، وأهواله التي يعانيها المسافر بالنهار ثم بالليل، فيذكر اشتداد الحر الذي يتلظى، والسراب الرقراق الذي يمور، والقيظ الذي يتسلط لهيبه على الوجه في النهار الذي أصيله هجير، ويذكر الرياح النكباء التي تستنشق، والرمضاء الفائرة التي توطأ، وهو لا يغفل الوصف النفسي، فيذكر مخاوف المسافر وإحساسه بالموت إحساسا يصوره في عينه ألوانا مختلفة وأشكالا متعددة، كما يجسم الرعب واستيلاءه على المسافر في تلك الظروف بحيث يخدع حواسه في سمع لها صفيرا حيث الظلام الكثيف يتخلله زئير الأسد، وحيث تتراقص زهر الكواكب في السماء كحسان كواعب في حديقة خضراء، وحيث تدور نجوم القطب مثل كؤوس بلور يدور بها ساق، وحيث يظهر طريق المجرة كأنه شيب أبيض على مفرق الليل الأسود، وحيث يروع الظلام حين تفتر جفون النجوم، فتغمض منها العيون "(٤) .

ومن خلال التأمل المتأني في اللوحة الشعرية السابقة نجد أن ابن دراج قد

---

(١) المجرة : البياض المعترض في السماء. السابق(جرر)

(٢) قتير : الشيب. السابق(قتر).

(٣) الغضاضة : الفتور في الطرف .السابق(غضض).

(٤) الأدب الأندلسي من الفتح إلى السقوط د/ أحمد هيكل : ٣١٥– دار المعارف – ط الثالثة عشر – القاهرة ١٩٥٨م.

اتكأ في بث ما ألم به من خلال غياهب رحلته على أسلوب الشرط حيث قوله:

ولو شاهَدَتْنِي والصَّوَاخِدُ تَلْتَظِي عَليَّ وَرَقْرَاقِ السَّرَابِ يَمُورُ

حتى وصل إلى جواب الشرط بعد أربعة أبيات حيث قوله :

لَبَانَ لها أَنّي مِنَ الضَّيْمِ جَازِعٌ وأَنِّي عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ

ثم ما لبث أن استدعى أسلوب الشرط مرة أخرى حيث قوله:

ولو بَصُرَتْ بِي والسُّرى جُلُّ عَزْمَتي وجَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلاةِ سَمِيرُ

حتى وصل إلى جواب الشرط عند البيت السابع إذ قال:

لَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ المنى طَوْعُ هِمَّتِي وأَنّي بعطفِ العامِرِيِّ جديرُ

وفي اعتماد الشاعر على الشرط والجواب فيما ألم به في رحلته تلك وتكرار ذلك، توكيد لتلك الأمور، وبدهي أن زوجه لن تشك فيما يرويه أدنى شك، ولكنه بذكاء ابن دراج الوقاد ساق ما ساقه على غرار المثل العربي " إياكَ أعنى واسمعي يا جارة "(١) فهو يرمى بكل هذه الصور والمشاهد التي تجشمها، بعد إلباسه لباس التأكيد، إنما يلقى بها بين يدي ممدوحه ابن عامر، حتى يبرهن على مدى حبه إياه، فمن أجله ترك الولد والزوج والأوطان، ورمى بنفسه في الفلوات والمخاطر .

---

(١) أول من قال ذلك سهل بن مالك الفزاري، وذلك أنه خرج يريد النعمان فمر ببعض أحياء طي فسأل عن سيد الحي فقيل له : حارثة بن لأم، فأَمَّرح له فلم يُصِبْه شاهدا، فقالت له أخته : انْزِلْ في الرَّحْب والسَّعَة فنزل فأكرمته ولاطفته، ثم خرجت من خِبائها فرأى أَجْمَلَ أهل دهرها وأكملهم،وكانت عَقِيلَةَ قومِها وسيدة نسائها فوقع في نفسه منها شيء،فجعل لا يَدْرِي كيف يرسل إليها ولا ما يوافقها من ذلك، فجلس بِفناء الخِباء يوما ًوهي تسمع كلامه فجعل ينشد ويقول : يَا أُخْتَ خَيْرِ الْبَدْوِ وَالْحَضَارَهْ ... كَيْفَ تَرَيْنَ فِي فَتَى فُزَارَهْ

أَصْبَح َيَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ ... إيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ ....."

مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري – تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد :٤٩/١– دار المعرفة – بيروت – د.ت .

ومما يعضد تلك المعاني أن البيت نفسه الذي احتوى جواب الشرط الأخير، والبيت الذي بعده تضمنا ما ذهب إليه البحث من أن ابن دراج يقصد إلى ذلك قصدا حيث يقول :

لَقَـدْ أَيْقَنَـتْ أَنَّ المُـنَى طَـوْعُ هِمَّتِـي وأَنِّـي بِعَطْـفِ العَامِـرِيِّ جَدِيـرُ
وأَنِّـي بِذِكْـرَاهُ لِهَمِّـيَ زَاجِـرٌ وَأَنِّـي مِنْـهُ للخُطُـوبِ نَذِيـرُ

يستهل ابن دراج حديثه عن دقائق رحلته وما رآه فيها من أهوال وصعاب ومشاق يستهله بهذا الشرط فيقول :

ولـو شـاهَدَتْنِي والصَّـوَاخِدُ تَلْتَظِـي عَلَـيَّ وَرَقْـرَاقِ السَّـرَابِ يَمُـورُ
أُسَـلِّطُ حَـرَّ الهَـاجِرَاتِ إذا سَـطا عَلَـى حُـرِّ وَجْهِـي والأصِـيلُ هَجِيـرُ

فالشاعر قد اشتد عليه الحرص حتى احتواه، فتأمل اصطفاء فعل الشرط " شاهدتني" دون "علمتني" أو " أخبرتني " – بعد مراعاة الوزن– تجد فيه إيماء وتلويحا بما آل إليه حاله – "إذ ليس الخبر كالمعاينة"(١) والمشاهدة،" وما راء كمن سمعا" (٢) وفي التعبير بالماضي " شاهدتني" تجد ظلالا من الحزن والضيق والألم خيمت على الشاعر.

وإيثار التعبير بصيغة الجمع " الصواخد " دون المفرد " الصيخد " يكشف عن مبالغة قيمة في إبراز مدى وهج ولهيب أشعة الشمس، ففي اللسان الصيخد :

---

(١) أول من قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم . مجمع الأمثال : ٢/ ١٨٢. والحديث في المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري؛ تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا – باب تفسير سورة الأعراف : ٣٥١/٢– دار الكتب العلمية – بيروت– ط أولى – ١٤١١هـ – ١٩٩٠م.

(٢) جزء من شطر بيت : يا بن الكرام ألا تدنوا فتبصر ما قد حدثوك فما راء كمن سمعا البيت لم يعز إلى قائل. همع الهوامع في شرح جمع الجوامع للسيوطي – تحقيق / عبد الحميد هنداوي : ٣٨٩/٢– المكتبة التوفيقية – مصر– د. ت.

عين الشمس.(١) فحينما يجمعها الشاعر، فذاك إيحاء بأن شدة الحرارة بلغت مبلغا عظيما.

وأكدت ذلك وقررته الجملة الحالية " تلتظى عليَّ" ،والتعبير بالمضارع أبان عن استمرار ذلك وتجدده . واصطفاء الفعل " تلتظى" دون غيره تجاوز ما سبق عن الإبانة والإفصاح عن شدة الحرارة، وكأن الشاعر استلهم تعبيره مقتبسا من اسم النار" لظى" التي"هي نَزَّاعَةً لِلشَّوَى "(٢) وقد وصل الشاعر قوله " وَرَقْرَاقِ السَّرَابِ يمُورُ" بقوله : "والصَّوَاخِدُ تَلْتَظِي عَليَّ"، لما بينهما من اتحاد تام فهما جملتان خبريتان لفظا ومعنى فبينهما توسط بين الكمالين، والمناسبة قوية في الجمع بينهما فكلاهما يحكى صورة مؤلمة ومفزعة لابن دراج.

وقوله : "وَرَقْرَاقِ السَّرَابِ يَمُورُ" يصور مشهدا آخر مع مشهد تلظى أشعة الشمس بالشاعر،وأول ما يلفت النظر التعريف بالإضافة "رقراق السراب" وذلك للإيجاز والاختصار والسياق يقتضى ذلك، والتعريف بالإضافة يكون لأنه ليس للمتكلم طريق إلى إحضاره في ذهن السامع سوى ذلك، رغبة في الإيجاز.

والفعل " يمور" أبان عن أن هذا السراب يذهب ويجيء ويتحرك، وصيغة المضارعة كشفت عن تجدد واستمرار تحرك ذاك السراب، وكأنه يريد أن يقول حتى هذا السراب يريد أن ينقض عليَّ، فالحرارة ملتهبة عليه والسراب في عنفوان تحركه وذهابه ومجيئه، فالصورة مزلزلة، مضطربة الحركات، فمن ثم هو في ضيق وحزن شديد دلل على ذلك تكرار حرف " الواو" في هذا البيت ست مرات؛ وذلك لأن نطق هذا الحرف يستلزم ضم الشفتين، مما يوحى بالحزن والغم. علاوة على تكرار حرف " الراء" أربع مرات، يضاف إلى ذلك أن " تكرار حرف بعينه في كلمات البيت يضفي

(١) مادة : صخد.

(٢) سورة المعارج من الآية : ١٦.

على الكلام قدراً من العذوبة والسلاسة(١) وما زلنا مع ابن دراج في ذلك الجو حامى الوطيس من شدة الحرارة، فيقول :

أُسَلِّطُ حَرَّ الهاجِراتِ إذَا سَطَا عَلَى حُرِّ وَجْهِي والأَصيلُ هَجِيرُ

فالشاعر ذو عزيمة راسخة ماض لما عزم عليه، مواجه للصعاب والآلام فها هو لا يهرب من حر الهاجرات حال سطوتها وشدتها، بل يسلطها على حر وجهه .

ولما كان السياق قاهرا وباطشا من شدة الحر انتقى الشاعر مفرداته من المناخ الطبعي والجو النفسي اللذين يخيمان عليه فيقول" أُسَلِّطُ حَرَّ الهاجِراتِ إذا سطا عَلَى حُرِّ وَجْهِي.....البيت" فاصطفاء الفعل " أُسَلِّطُ" مبناه ومعناه دال على القهر، كما أن التعبير بالمضارع دل على تجدد واستمرار ذلك منه، وفي ذلك ما فيه من شدة التحمل وعظيم الجلد.

والشاعر بلغ الغاية في دقة تعبيره فهو إذ قرر أن يسلط حر الهاجرات على" حر وجهه " نجده اصطفي صيغة الجمع" الهاجرات" وذلك مبالغة في إظهار ذلك الحر الشديد اللافح، فقد تضاعفت الهواجر – مع أنها هاجرة واحدة – من لهيب لفحها. ورغم ذلك فهو سيسلط حر تلك الهواجر – حينما يسطو عليه ويقهره– على حر وجهه، أي الجزء البادي من الوجه ومن الوجنة، وهو أشرف ما في الوجه . وفي إيثار التعبير بـ" حر وجهي " مبالغة قوية تكشف عن مدى تحمل ذلك الشاعر ومدى إظهار صبره وتجلده، فما يبدو من الوجه – بل أشرف موضع فيه – هو ما يحرص عليه الإنسان أشد الحرص، إلا أن ابن دراج في هذا المشهد العصيب غدا نسيج وحده، فلم يحرص على وجهه، بل سيكون حريصا على إلهابه تجلدا وتصبرا .

(١) دراسة في البلاغة والشعر/ د محمد أبو موسى : ٢٠٤– مكتبة وهبة – ط أولى – ١٤١١هـ – ١٩٩١م.

فالإنسان العادي يقي وجهه أي خطر يمكن أن يهدده، لا أن يعرض وجهه للخطر ويسلطه عليه. فالشاعر لا يقي وجهه سوء العذاب، بل يسلطه على وجهه

وأتى الاعتراض في قوله " إذا سطا" لتأكيد وقوع ذلك الأمر، والتأكيد غرض من أغراض الاعتراض، وقد أحسن – كعادته – حينما استعمل " إذا" التي تدل على تحقق الحصول، بخلاف "إن " التي تدل على الشك في وقوع الشيء.

هذا وبين قوله "حَرَّ الهاجِراتِ " وقوله " حُرِّ وَجْهِي" جناس ناقص أحدث تلك الموسيقى الداخلية بين الكلمات، فوق ما فيه من استثارة انتباه ولفت للعقول.

وفي قوله " والأصيلُ هَجِيرُ" مبالغة وقعت موقعا حسنا، فكأنها اللبنة الناقصة في ذلك الصرح الذي شاده ابن دراج في رسم الجو اللافح الذي يحيا فيه، و"الأصيل" في اللسان: هو الوقت بعد العصر إلى المغرب، أو هو وقت العشي(١) فهذا الوقت وقت معتدل الحرارة، بل يكون رطبا أحيانا، فكيف به يكون هجيرا؟! أي: شديد الحرارة.

وانطوى البيت على صورة بديعية هي التصدير حيث ورود كلمة" الهاجرات" في حشو المصراع الأول، وورود كلمة "هجير" وهى آخر كلمة في المصراع الثاني وقد أكسب البيت جوا موسيقيا متناغيا، وتأمل ما ابتدأه الشاعر في هذا البيت من كلمة " أسلط " ومعناه القهر، وبين آخر كلمة في البيت " هجير " وهو وقت الحر القاهر. فالبيت برمته ملتهب أيما التهاب .

ويمضى ابن دراج قدما في سيره بتلك الفلوات في قوله:

وأَسْتَنْشِقُ النَّكْباءَ وَهْيَ بَوارِحٌ وأَسْتَوْطِئُ الرَّمْضاءَ وَهْيَ تَفُورُ

الوصل للتوسط بين الكمالين بين هذا البيت وسابقه يؤكد على تلك اللحمة القوية لهذه الأبيات فهي لوحة واحدة .

---

(١) مادة : أصل.

وما زال الشاعر يتبارى في إبراز تجلده وتصبره فهو يستنشق الريح الشديدة، والريح الشديدة يتجنبها الإنسان، بل ربما يحرص على وضع يده على فمه وأنفه معا بينما – وكما مر– ابن دراج غدا فريد عصره ونسيج وحده في ذلك الموطن فهو يشم تلك الرياح الشديدة.

والدقة التعبيرية بلغت مداها في بناء الفعل " أستنشق" فالألف، والسين، والتاء للطلب، وكأنه يتطلبها بل ويبالغ ويجد في طلب ذلك، وصيغة المضارع تعين على ذلك ، والجملة الحالية " وهى بوارح" وردت في صورة بديعية ألا وهى " التتميم"، ونكتته المبالغة فيما عليه الشاعر من طلبه استنشاق تلك الرياح الشديدة المحملة بالتراب في شدة الهبوات.

ومجيء صيغة الجمع " بوارح" مما يقوى نكتة التتميم، فهى مبالغة على مبالغة ، وكما كان الحال مع "النكباء" ، كان الحال مع " الرمضاء" ،فالشاعر يطلب ويجد في طلبه كى يستوطئ في وطأته الرمضاء، وما أدراك ما الرمضاء؟ إنها الرمال شديدة الحرارة، والجملة الحالية "وهى تفور" وردت بطريق التتميم لنكتة المبالغة .

وقد احتوى البيت على الموازنة– أيضا – " وأستنشق النكباء" و" أستوطئ الرمضاء" ليساوي الفاصلتين في الوزن دون التقفية .وكانت لتلك الموازنة جرسا موسيقيا تناغى وسياق الكلام.

ومن خلال معاني هذا البيت نشعر بمدى الكرب الذي ألم بالشاعر، فهو في حزن جم وحسرة على ما يلاقى ويكابد، وقد ساهم تكرار حرف" الواو" سبع مرات في هذا البيت على تأكيد تلك المعاني.

ثم يقول ابن دراج :

وللْمَوْتِ فِي عيشِ الجبانِ تلوُّنٌ وللذُّعْرِ فِي سَمْعِ الجريءِ صَفيرُ

بين البيتين وصل للتوسط بين الكمالين لاتفاقهما في الخبرية لفظا ومعنى وبينهما ما بينهما من اتصال معنوي وثيق .

ولما كان هذا الحال الذي يعيش فيه الشاعر من حر الهاجرات اللافح الذي يدفعه دفعا إلى وجهه، وسيره على الرمال المحرقة، طفق يتحدث عن الموت والذعر والهلع، وقوله " وللمَوْتِ في عَيْشِ الجبان ِتَلونٌ" فالمتلون : المتغير، وهو الذي لا يثبت على خلق واحد(١) فهو متعدد الصور والأشكال، والشاعر يريد أن يوصل رسالة لزوجه ولممدوحه – بالأحرى – بأنه ليس جبانا ومن ثم هو لا يعبأ بما هو فيه من حال متردية في هذا القيظ المبيد، فالجبان يرى الموت في كل شيء، وتقديم الجار والمجرور " للمَوْتِ" لا يخفي ما وراءه من بيان حال اختصاص الموت بالتلون عند الجبان، علاوة على ما فيه من " التوازن الصوتي الذي يشارك مشاركة فعالة في تحريك القلوب وبعث خوافي الإحساس والشعور"(٢) والإضافة في " عَيْشِ الجبانِ" للتحقير والازدراء، فمن ثم ينأي بنفسه عن ذلك، ويؤكد ذلك الشرط التالى لهذا البيت:

لَبانَ لَهَا أَنِّي مِنَ الضَّيْمِ جازِعٌ وأَنِّي عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ

والجبان ليس عنده صبر، وقوله " وللذُّعْرِ في سمع الجريء صَفِيرُ" والشاعر يكنى عن نفسه بالجريء المقدام، والإضافة" سمع الجريء" تؤكد وتشيد بهذه الجرأة. ويلحظ أن هذا البيت يكاد يشبه الحكمة إلى حد بعيد " وحين نستحسن الشعر لما فيه من حكمة أو مثل، إنما نستحسنه لا من حيث هو شعر، وإنما من حيث هو حكمة ومثل، أو من حيث هو معنى أصاب في نفوسنا حالة مهيأة

(١) اللسان :لون .

(٢) خصائص التراكيب: ١٥٠ .

لقبوله"(١) ويبدو أن شاعرنا مغرم بتكرار مفرداته مع تقارب معانيها، حيث كرر ما هو قريب من معنى هذا البيت فقال في موضع آخر من ديوانه:

وللموت في نفس الشجاع تخيل وللذعر في عين المخاطر ألوان(٢)

ثم يصل ابن دراج إلى جواب الشرط فيقول :

لَبانَ لَهَا أَنِّي مِنَ الضَّيْمِ جازِعٌ وأَنِّي عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ

والمعنى أنه لو قدر لزوجه أن تشاهد ما ألم به في رحلته تلك من مصاعب وأهوال لظهر لها وتأكدت أنني ممن يجزع ونعند الضيم والظلم، وممن يصبر ونعلى مواجهة المصاعب والآلام .

ويلحظ اقتران " اللام " في جواب الشرط وذلك للتأكيد، ويتسع جو التأكيد ليشمل الجملتين الاسميتين المؤكدتين بـ "أن" " أَنِّي مِنَ الضَّيْمِ جَازِعٌ" و" أَنِّي عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ" وقد يسأل سائل لماذا التأكيد هنا؟ وهل زوجه لديها شك في ما عليه زوجها من سجايا؟ والجواب في أمرين :

الأول: من باب – كما سبق – إياك أعنى واسمعي يا جارة، فيكون الكلام برمته موجه إلى الممدوح. وهذا هو الأليق والأنسب للقصيدة والغرض منها .

الثاني : بأن الكلام موجه إلى زوجه فيكون التأكيد حينئذ ليس منظورا فيه إلى حال المخاطب " وإنما ينظر فيه المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقيقة ... وهذا اللون كثير جدا وله مذاقات حسنة"(٣) فابن دراج يصوغ هذه المعاني كما أحستها نفسه، مراعيا حال هذه النفس، فهو لم يشكل صياغة عبارته

(١) دراسة في البلاغة والشعر: ٢٤٤.

(٢) الديوان: ٥٦.

(٣) انظر : خصائص التراكيب : ٩١.

بدوافع خارجية يلحظها عند مخاطبه "(١) والتقديم للجار والمجرور في " مِنَ الضَّيْمِ جَازِعٌ" و"عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ" للعناية والاهتمام ، والإضافة " مض الخطوب" تقرير وتأكيد على شدة وجع وآلام تلك الخطوب وتشديد الكلمة في " مض" يتناغى ومعنى الإضافة.

وتأمل تغاير الصيغ لدى الشاعر بين اسم الفاعل " جازع" وصيغة المبالغة "فعول" " صبور"،ولعل استعمال" صابر"دون"صبور"كان سيقوي من موسيقى البيت الداخلية، إلا أن المعنى والقافية لهما رأي آخر، فصيغة المبالغة " صبور" أقوى في الدلالة على الصبر من اسم الفاعل" صابر"،فقد دلت صيغة المبالغة على ما عليه الشاعر من شدة الصبر وعدم الجزع، أما التعبير بصيغة اسم الفاعل" جازع" فأبان عن دوام و ثبوت هذا الجزع، ولكن ليس فيه من المبالغة ما لو كان بصيغة " جزوع" ؛ ولذلك لما أراد القرآن الكريم المبالغة في جزع الإنسان عندما يمسه الشر أتى بصيغة المبالغة " فعول " فقال: " إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا"(٢)

ثم يقول الشاعر واصفا نفسه:

أَمِيرٌ عَلَى غَوْلِ التَّنائِفِ مَا لَهُ إِذَا رِيعَ إِلّا المَشْرِفِيَّ وَزِيرُ

ابن دراج انتقل إلى الحديث – مفتخرا – عن نفسه في هذا البيت عن طريق الالتفات، حيث التفت من "المتكلم "في البيت السابق في قوله: "وأَنِّي عَلَى مَضِّ الخُطُوبِ صَبُورُ " إلى الغائب في هذا البيت : " أمير....البيت" .

ويلحظ أن الشاعر حذف المسند إليه في أول البيت تقديره " هو أمير" ويكمن سره في حالة الضيق التي يعيشها من الجو الذي يهيمن عليه، وقد يكون السر هو الإسراع إلى المقصود بلا مهلة.

---

(١) انظر السابق : ٩٢.

(٢) سورة المعارج :٢٠.

وقوله "أَمِيرٌ عَلَى غَوْلِ التَّنَائِفِ" جار على طريقة الاستعارة التصريحية التبعية، حيث شبه سيطرته على أهوال ومصاعب تلك الفلوات شبهها بالإمارة، ثم اشتق من الإمارة " أمير" ،وقد أحسن الشاعر في ذلك أيما إحسان، حيث صورت تلك الاستعارة مدى تمكنه وتصرفه في شئون هذه المفاوز تمكن وتصرف الأمراء.

وكلمة " وزير" في آخر البيت تعد ترشيحا لتلك الاستعارة، وهو مما يلائم المشبه به، وبذا تقوى الاستعارة ويضيف إليها مزيدا من الادعاء والتناسي، ومن هنا يعتبرها البلاغيون أقوى الاستعارات وأدخلها في البلاغة .

وأتى قوله : "ما له إذا رِيعَ إلَّا المَشْرَفِيَّ وزيرُ" مفصولا عن سابقه وذلك لكمال الاتصال بين الجملتين، حيث وقعت الجملة الثانية من الأولى بمنزلة عطف البيان، فقوله "أَمِيرٌ عَلَى غَوْلِ التَّنَائِفِ" فيه بقية من الغموض والخفاء، وقد اقتضى ذلك إيراد الكلام في صورتين : الخفاء والبيان، ليجمع بين عطاء كل، فيكون أسمى وأجدى(١) وقد أبانت الجملة الثانية أيما بيان عن معنى الجملة الأولى، فمن مقتضيات الأمير إذا ألم به خطر أن يتخذ من سيفه وزيرا للدفاع.

وقد اتخذ ابن دراج من أسلوب القصر بالنفي والاستثناء وسيلة إلى إبراز شجاعته وبأسه حيث قوله "ما له إذا رِيعَ إلَّ االمَشْرَفِيّ َوزيرُ" وهو قصر صفة على موصوف قصرا حقيقيا تحقيقيا، فليس عند الروعة وإحداق الأخطار سوى السيف من وزير وحام .

وتأمل إيثار "إذا" الشرطية دون" إن" ليؤكد على تحقق حصول الروعة والأخطار، ولِمَ لا وهو بين تلك الفيافي المهلكة.

والتعبير بـ " المجهول" "ريع" أوحى بعظم الخطر وشدته .ثم يستأنف الشاعر وصف ما رآه في رحلته فيقول :

---

(١) حاشية السيد الشريف على الكشاف:١/١٨٦.

ولو بَصُرَتْ بِي والسُّرى جُلُّ عَزْمَتي وجَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلاةِ سَمِيرُ

أي لو علمت بحالى في تلك القفار، والإضافة في " بي" كشفت عن إبراز الشخصية والقوة، يؤكد ذلك المعنى قوله فيما بعد " والسُّرَى جُلُّ عَزْمَتِي"، و" جَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلاةِ سَمِيرُ" فالسير بالليل ديدن الشاعر ودأبه، بل معظم عزيمته يكون في ذلك السرى، وبدهي أن السير بالليل شيمة الشجعان الذي لا يهابون الأخطار.

وكلمة " عزمتى " من الكلمات التي لا يكاد الشاعر يكررها مرة مفردة كما في هذا الموضع، وكما في قوله " فإنَّنِي عَلَى عَزْمَتِي من شَجْوِهَ الغَيُورُ" ومرة يجمعها كقوله في مستهل قصيدته "دَعِي عَزَمَاتِ المُستضامِ تسيرُ" وهذا يكشف لنا عن جانب من المعجم الشعري لذاك الشاعر فالعزيمة لديه وقادة ، والشجاعة والجرأة عنده وثابة .

والإضافة في"جل عزمتى" أكدت معاني الإقدام والشجاعة ، وقوله "وجَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلاةِ سَمِيرُ" موصول بسابقه للتوسط بين الكمالين لاتحادهما في الخبرية لفظا ومعنى ، يبرز مدى التلاؤم والتناغى ، فالشاعر يستعرض قوته وشجاعته ، فلا تثريب عليه حينما يصل العبارات المتوائمة المتناغية لتأكيد معنى من المعاني.

وابن دراج يجعل من صوته سميرا لجن الفلاة ، وهو كناية عن امتداد صوته واستمراره ، حيث إن سمر الليل يحتاج إلى الأحاديث الطويلة المشوقة ، وكأن ابن دراج جعل من صوته ذلك الأمر .

وإذ يجعل الشاعر صوته للجن يسمرون عليه ، يصور لنا كيف غدا أمره في تلك الفيافي ، فهو لا يهدأ في سيره حتى أنه إذا جن عليه الليل لا يتوقف عن مسيره ، ولا ينقطع صوته ولا يضعف ،وتلك المخلوقات – الجن – التي يخشاها أغلب الناس ، تتخذ من صوت الشاعر مادة للسمر في ليلهم ، وكل ذلك يصور لنا

مدى هيمنة الشاعر على تلك الفيافي .

وفي اصطفاء صيغة الجمع "جِنَّانِ" إيحاء بالمبالغة في أن جن الفلاة يسمرون على صوته ولم يشذ منهم جني واحد. والإضافة في" لِجِنَّانِ الفَلَاةِ" للبيان حيث بينت نوع هذه الجن ، علاوة عن أن تلك الإضافة زادت من شجاعة ابن دراج مهابة وإجلالا، وكأن لسان الحال يقول : إذا كان جن الفلاة يسمرون على صوتي ، فكيف الحال بجن الحضر والمدينة؟!

ثم يقول :

وأَعْتَسِفُ المَوْمَاةَ فِي غَسْقِ الدُّجى وللأُسْدِ فِي غِيلِ الغِياضِ زَئِيرُ

الشاعر بارع في دقة تعبيراته ، فتأمل اصطفاء الفعل" أَعْتَسِفُ" وما يحويه من صعوبة إلى حد ما في النطق ، حيث" الهمزة " ومخرجها أقصى الحلق ، ثم "العين" ومخرجها وسط الحلق ، وذلك بخلاف ما لو قال " وأسلك "(١)أو"أقطع"(٢) الخ .لكننا نرى الشاعر مصيبا أيما إصابة فيما عبر به ، فصعوبة نطق حروف " أعتسف" تتناغى مع صعوبة سلوكه تلك المومأة ، لاسيما وأن المراد بالاعتساف: هو ركوب المفازة وقطعها من غير قصد ، ولا هداية ، ولا طريق مسلوك.(٣)

والتعبير بالمضارع أفاد التجدد والاستمرار وبذا يسهم إسهاما فعالا في إبراز

---

(١) وذلك كما قال مجنون ليلي :

وما سلك المومأة من كّل حسرةٍ طليحٍ كَجَفْنِ السيفِ تَهْوِى فَتُرْكَبُ

ديوانه جمع وتحقيق وشرح/ عبد الستار أحمد فراج : ٤٠ – دار مصر للطباعة – د. ت .

(٢) وذلك كما قال كثير عزة : =

= فقدْ أَقْطَعُ المَوْمَاةَ يَستنُّ آلُها بها جِيَفُ الحَسْرى يلوحُ هشيمها

ديوانه ، جمع وشرح / إحسان عباس : ١٤٥– دار الثقافة – بيروت – لبنان– ١٣٩١هـ ١٩٧١م،

(٣) لسان العرب: عسف.

صعوبة ما يصنعه الشاعر بنفسه في تلك الفيافي. والموماة هي : تلك الفلاة الواسعة الملساء التي لا ماء بها ولا أنيس، وإذ بالشاعر يسير فيها على غير هدى ، ولا طريق معبد مسلوك، والظرف في قوله"في غسق الدجى"أي الظلام الشديد المطبق ،يتواءم مع معنى الفعل"أعتسف" فيولد مبالغة مؤداها أن الشاعر يعتسف تلك المفازة من غير قصد ولا هداية،وذلك في ليل داج بهيم،وكأن ابن دراج احتوشته الظلمات من كل حدب وصوب، ظلمات عدم الاهتداء في صحراء واسعة مترامية الأطراف،وظلمات ليل طامس،وظلمات الغربة والفراق،فهي ظلمات بعضها فوق بعض،إذا أخرج يده لم يكد يراها، وهذه المبالغة من الشاعر تدخل في الإغراق وهو الممكن عقلا لا عادة ،فأن يوجد إنسان في مفازة واسعة ويبالغ في السير فيها على غير هدى،وبلا طرق مسلوكة وفي ليل بهيم، كل هذا ممتنع عادة،وإن كان غير ممتنع عقلا .

والشاعر يرسم لوحة مخيفة ويلملم أجزاءها ضاما بعضها إلى حجز بعض فبعد أن دخل في غياهب الموماة بلا اهتداء إلى أي طريق، سوى طريق التيه والضلال ، ثم يجعل الوعاء الزمني لذلك في هذا الظلام الدامس.

بعد ذلك كأنه لم يبق سوى الموسيقى التصويرية التي تتواءم مع ذلك المشهد فيقول"ولِلأُسْدِ في غِيل ِالغِيَاضِ زَئِيرُ" حقا يا له من مشهد مرعب وربما مميت، وكأن لسان حاله يقول: إن المصائب لا تأتى فرادى .

وقوله "في غِيل ِالغِيَاضِ" أي أن زئير الأسد آت من خلال ذلك الشجر الكثيف الملتف الذي يستتر فيه ،وقد ورد ذلك القول من ابن دراج على سبيل الاعتراض ، وغرضه من ذلك تأكيد صدور ذلك الزئير حيث حدد صاحبه والمكان الذي حصل فيه .

والاعتراض هنا يكشف عن متابعة واعية من الشاعر، وبصر جيد بدقة

التفاصيل ، وكيف يصل إليها من أقرب طريق.

ثم يقول :

وقــد حَــوَّمَتْ زُهْــرُ النُّجُــومِ كأنَّهــا كواعِـبُ فــي خُضْـرِ الحَـدَائقِ حُــورُ

ودارَتْ نُجُــومُ القُطُــبِ حتَّــى كَأَنَّهَــا كُــؤُوسُ مَهَــا وَالَــى بِهِــنَّ مُــدِيرُ

وَقَــدْ خَيَّــلَتْ طُــرْقُ المَجَــرَّةِ أَنَّــهَا علــى مفــرق الليــل البهــيم قتيــرُ

وثَاقِــبَ عَــزْمِي والظَّــلَامُ مُــرَوِّعٌ وقــد غَــضَّ أَجْفَــانَ النُّجُــومِ فُتُــورُ

بهذه الأبيات الأربعة نرى ابن دراج أبى إلا أن يشرك السماء مع الأرض في تصوير ما هو فيه .

فقوله "وقد حَوَّمَتْ زُهْرُ النُّجُومِ" أفصح عن تعاطف النجوم مع الشاعر ، فها هى تحوم وتدور حوله ، ربما لبث الطمأنينة إلى قلبه الذي أوهنته أهوال المفاوز.

وتأمل جمال الاستعارة التصريحية التبعية في قوله"حومت" وقد استهلها بـ"قد" التي تفيد تحقيق ذلك الأمر ، لتسهم منذ البداية في تقوية أواصر تلك الصورة البيانية .حيث شبه ما يكون من النجوم من دوران بالحومان ، ثم اشتق من الحومان الفعل " حومت" عل سبيل الاستعارة التبعية ، وقد أبانت عن مدى تعاطف النجوم مع الشاعر حتى لكأنها تحوم حوله حومانا .

ولا يخفي ما في اصطفاء ابن دراج في تصويره حال النجوم معه بأسلوب الاستعارة دون غيره من الصور البيانية الأخرى من تشبيه وكناية ، فلعل ذلك راجع إلى ما للاستعارة من شدة المبالغة ودقة التصوير وتعدد المعاني ، وفي ذلك المضمار يقول شيخ البلاغيين عنها" أنها تعطيك الكثير من المعاني باليسير من اللفظ حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر ، وتجنى من الغصن الواحد

أنواعا من الثمر "(١)

والإضافة" زهر النجوم " للإشادة والتعظيم ، فهي ليست نجوما عادية ، بل زهر النجوم خاصة تلك التي تضيء السماء بأسرها .

وفي الكلام حذف للمفعول تقديره " وقد حومت زهر النجوم عليَّ " ولعل سر الحذف يكمن في الإيجاز والمحافظة على الوزن ،وقد يكون ذكره نوعا من العبث . هذا وقد بنى ابن دراج هذا البيت كله على لوحة تشبيهية غاية في الروعة وهو من التشبيه المركب ، فقد شبه هيئة هذا النوع من النجوم وهو يحوم ويدور حوله بهيئة الكواعب الحور وهى تمرح في الحدائق الخضراء، وهو من تشبيه المحسوس بالمعقول.

ووجه الشبه هيئة شدة اللمعان والبريق والبهاء لتلك النجوم حتى لم يجعل الشاعر لها شبيها سوى الكواعب الحور التي ليس لها ند ولا نظير ولا مثيل.

ولا ننس أن ابن دراج صور بخياله تلك النجوم وهو في وقت حالك السواد في غسق الدجى ، فمن ثم رآها وصورها كأن لم يرها من قبل، وهل رأي أحد الكواعب الحور من قبل ؟!

وفي اختيار" كأن"من أدوات التشبيه دون غيرها إشارة إلى قوة الشبه.

ويلحظ أن الشاعر لم يكتف بوصف واحد لنساء الجنة،بل أتى بوصفين" كواعب" و "حور" وهذا يؤكد على أن إعجابه بتلك النجوم بلغ غايته.

والاعتراض في قوله" في خضر الحدائق" لتأكيد وتقوية المشبه به ، فمكان الكواعب الحور لا يكون إلا في خضر الحدائق، والإضافة "خضر الحدائق" للتفخيم والتشريف، وبذلك تتآزر الأساليب قاطبة من استعارة وتشبيه وحذف للمفعول ،

(١) كتاب أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق / محمود أحمد شاكر: ٤٣- مطبعة المدني – ط – أولى ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

واعتراض، وإضافة ، جميعها تتآزر في إبراز مراد الشاعر. ويلحق تلك الصورة التشبيهية السابقة بصورة أخرى قريبة منها إلى حد ما فيقول:

ودارَتْ نجومُ القُطْبِ حَتَّى كَأَنَّها كُؤوسُ مَهاً والى بِهِنَّ مُدِيرُ

فهو يشبه هيئة دوران تلك النجوم في لمعانها وبريقها بهيئة كؤوس البلور التي يدور بها الساقي على الشاربين والوجه هو هيئة الدوران مع الإشراق والحركة المتصلة في كلٍّ.

وملاحظ أن ابن دراج راعى في ذلك التشبيه أوصاف الجسم بالإضافة إلى نوع الحركة، فالجسم للنجوم وللكؤوس ، ومن أوصافه الدوران والإشراق واللمعان ، بالإضافة إلى الحركة التي هي من النوع الدائب المتصل. وقد أبدع في ذلك فهو – بحق – مشهد تصويري خيالي فيه بداعة ولطف ودقة مأخذ وبراعة تعبير، وحسن تأنى وجميل إيراد ،إذ قد يقضى الإنسان حياته ولا يتأمل أو يرى صورة كهذه ، فهي صورة – بحق – تعد من بديع المركب الحسي.والإضافة في " نجوم القطب " للبيان والتخصيص .

وتأمل قوله " حتى" التي تفجرت منها شرارة التشبيه السابق ، فـ "حتى" هنا لانتهاء الغاية، وكأن النجوم أخذت تدور إلى أن وصلت إلى تلك الهيئة التي صورت بها كؤوس البلور....الخ.

أما الإضافة في " كؤوس مها " فأبرزت شرف وجمال ولمعان تلك الكؤوس وبذا تتساوق هذه الإضافة في إبراز الصورة البديعية في أبهى حللها . والتنوين في " مهاً" أسهم في إضفاء مزيد من معاني اللمعان والبريق . وقد أحسن ابن دراج أيما إحسان حين اتخذ من ذلك التشبيه القائم على الجمع بين المتباعدين ليقرب بينهما ، فيكون بينهما التواؤم والتناغى والاعتلاق .

وقوله " والى بهن مدير" جملة حالية لكؤوس المها ، وقد يقال – هنا –

هل تعد قيدا في المشبه به ؟ والجواب لا يمكن ذلك ، فلو عدت قيدا لتفككت أواصر الهيئة التي قصد ابن دراج تشبيه دوران نجوم القطب بها، وحيث إن القصد المناسب لحال تلك النجوم في السماء أن تشبه هيئة مجتمعة بهيئة مجتمعة فابن دراج لم يقصد تشبيه هيئة دوران النجوم بالكؤوس البلورية فحسب ، بل قصد تشبيه هيئة بهيئة ؛ وذلك حتى يتسنى استحضار تلك الصورة العجيبة واستمرار وتجدد تخيلها وتمثلها. والتقديم في " بهن " على " مدير " للاهتمام بتلك الكؤوس من قبل مديرها على الناس في موالاة الواحد تلو الآخر دون توقف أو تأخر ، وهو ما يبدو تماما بتمام ما يكون من دوران النجوم حول قطبها. وبذا يتكاتف التقديم مع باقي أجزاء الصورة الكلية .

والصور التشبيهية الناظرة إلى السماء تترى لدى الشاعر فيقول:

وَقَدْ خَيَّلَتْ طُرْقُ المَجَرَّةِ أَنَّها عَلَى مَفْرِقِ الليلِ البهيمِ قَتِيرُ

يلحظ أن ابن دراج قد استهل ذلك التشبيه بـ" قد" التي تفيد التقريب حتى تتناغى مع أداة التشبيه " خيلت "، والشاعر يشبه ذلك البياض المعترض في كبد السماء في ذلك الليل ذى الظلام الدامس الطامس، يشبه هذا الخيط الأبيض على الليل بالشيب الذي يبدو على مفارقه.

وطرفا التشبيه مفردان مقيدان ، إذ قيد المشبه " طرق " بالمضاف " المجرة "وقيد المشبه به " مفرق الليل " بالوصف " البهيم " ، ووجه الشبه مركب من الهيئة الحاصلة من امتداد خط أبيض على رقعة سوداء. وتأمل محاولة الشاعر تأكيد تلك الصورة التشبيهية من خلال الجملة الاسمية المؤكدة بـ"أن" في قوله " أَنَّهَا على مفرق الليل البهيم قتيرُ".

وفي قوله " مفرق الليل "استعارة بالكناية ، حيث شبه الليل برأس الإنسان ، وحذف المشبه به " الرأس" وأبقى شيئا من لوازمه " مفرق "، وقوله " قتير" المراد

به الشيب يعد استعارة تخييلية هي قرينة المكنية .

ثم يقول:

وثاقِبَ عَزْمِي والظَّلامُ مُرَوِّعٌ وَقَدْ غَضَّ أَجفانَ النجومِ فُتُورُ

قوله " وثاقب عزمي " أي : وضوء ولمعان عزمي وهمتي، معطوف على فعل الشرط " ولو بصرت" في بيت سابق حيث قوله :

ولو بَصُرَتْ بِي والسُّرى جُلُّ عَزْمَتي وجَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلاةِ سَمِيرُ

والمعنى : ولو بصرت ثاقب عزمي والظَّلَامُ مُروِّعٌ وقد غَضَّ أَجْفَانَ النُّجُومِ فُتُورُ.

والجواب :

لَقَدْ أَيْقَنَتْ أَنَّ المُنَى طَوْعُ هِمَّتِي وأَنِّي بِعَطْفِ العَامِرِيِّ جَدِيرُ

وأَنِّي بِذِكْرَاهُ لِهَمِّيَ زَاجِرٌ وَأَنِّي مِنْهُ للخُطُوبِ نَذِيرُ

وعلى ذلك يكون في الكلام إيجاز بالحذف قد تطلبه السياق والمقام، والتعبير باسم الفاعل" ثاقب" كشف عن دوام وثبات ضوء عزم الشاعر. وقوله " والظَّلَامُ مُروِّعٌ " جملة حالية كشفت عن الزمن والجو المصاحب للشاعر. والتنوين في " مُروِّعٌ" أبان عن هول ذاك الظلام ،وبين قوله " وثاقب عزمي " وقوله"والظَّلَامُ مُروِّعٌ" طباق ،حيث طابق بين لمعان وبريق عزمه – الذي هو كناية عن همته الشديدة – وبين ذلك الظلام الشديد المخيف.

ويضم ابن دراج إلى ذلك الجو المخيف صورة أخرى ، إذ يصور النجوم في هذا الجو المظلم بإنسان أصابه فتور في طرفه فكاد أن ينام على طريق الاستعارة المكنية ،والتعبير بـ"قد" كشف عن قرب تحقق ذلك الفتور للنجوم. وفي هذا البيت بما حواه من إيجاز بالحذف ، وطباق ، وكناية، واستعارة مكنية ليؤكد أنه– رغم ما لاقاه ويلاقيه ويكابده من أهوال جسام– ثابت على عزمه، على يقين في الوصول

إلى هدفه ومأربه .

وبعد مرور خمسة أبيات من البيت الذي ورد فيه فعل الشرط " ولو بصرت بى" في قوله:

وَلو ْ بَصُرَتْ بِى والسُّرَى جُلّ ُعَزْمَتِي وجَرْسِي لِجِنَّانِ الفَلَاةِ سَمِيرُ

يأتي جواب الشرط ، حيث يقول:

لَقَـدْ أَيْقَنَـتْ أَنَّ المُـنَى طَـوْعُ هِمَّتِـي وأَنِّـي بِعَطْـفِ العَامِـرِيِّ جَدِيـرُ

وأَنِّـي بِذِكْـرَاهُ لِهَمِّـيَ زَاجِـرٌ وَأَنِّـي مِنْـهُ للخُطُـوبِ نَذِيـرُ

وقوله "لَقَدْ أَيْقَنَتْ.....البيت" فصل عن سابقه لكمال الانقطاع بلا إيهام ، حيث اختلفت الجملتان، الأولى منهما خبرية لفظا ومعنى ، والثانية " لقد أيقنت " إنشائية لفظا ومعنى، حيث بنيت على جملة قسم محذوفة ، فهو قسم مقدر ، حيث حذف وجوبا إذ كان حرف القسم " اللام" .

والإيجاز بالحذف جاء مطابقا لمقتضى الحال ، حيث أعيت المفاوز وأهوالها الشاعر ، فلم يقو على الذكر ، ووجد في الحذف راحته وضالته.

وتأمل التعبير بالماضي " أيقنت " تجد وراءه ظلالا من الأريحية والهدوء لدى الشاعر وزوجه على السواء.

واصطفاء مادة اليقين لهذا الفعل يوحى بأن الشاعر ممن يعرف كيف يفحم المجادل ، ويطمئن الخائف ، ويزيل تردد الشاك ، فكأنه لم يجد صيغة للفعل سوى "أيقنت " فهذا الفعل بزمانه ومادته أقنع زوج الشاعر بما عزم عليه وأكد ، بل ومضى في سبيل تحقيقه ، ألا وهو الارتحال إلى الممدوح ، ذلك العامري.

ثم يسرد الشاعر ما تيقنته زوجه ويعدده وهى أمور أربعة :

الأول قوله:"أَنَّ المُنَى طَوْعُ هِمَّتِي" أي: أن كل ما يتمناه وما تتطلبه همته يجد المنى – الذي جسده – طوع أمره ورهن إشارته في تحقيق ما يصبو إليه .

وقد بنى هذا المعنى الجميل على صورة بيانية رائعة تمثلت في الاستعارة بالكناية ، حيث شبه المنى بإنسان ، وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو الطاعة. ولم يزل ابن دراج يتخذ من الدقة التعبيرية ديدنا له ودأبا فتجده اصطفي قوله "همتي"دون"أمري"، أو"مرادي"مثلا،ولكن التعبير بالهمة هو غاية ما يصل إليه الإنسان.

ونلحظ أن الشاعر أكد ذلك المعنى بأكثر من مؤكد " إن " و" اسمية الجملة" والسر في ذلك هو ما رآه من عدم رضا زوجه لفراقها وابنها ، وأنها ربما أخبرته أنه قد لا يصل إلى مبتغاه من وراء ذلك الارتحال ، فأراد أن يهدئ من روعها بهذه المؤكدات وينتزع الشك والإنكار والقلق من قلبها.

وكما سبق ذكره في إيثار التعبير بـ " أيقنت " ما يعضد ويقوى القول في الغرض البلاغي من تأكيد ذلك الخبر.

والحق أن البيت من أوله يزدحم بالمؤكدات من خلال القسم المحذوف ، و" قد " التي للتحقيق،وصيغة الفعل"أيقنت"ومادته ، والتأكيد بـ " إن" واسمية الجملة ، فتجد نفسك أمام جيش عرمرم من المؤكدات .

الثانى: قوله "وأَنِّي بِعَطْفِ العَامِرِيِّ جَدِيرُ".

الثالث:" وأَنِّي بِذِكرَاهُ لِهَمِّيَ زَاجِرٌ".

الرابع :"وَأَنِّي مِنْهُ للخُطُوبِ نَذِيرُ".

أول ما يلفت النظر بين هذه الجمل جميعها ،أنها أتت موصولة ببعضها، وكان الوصل للتوسط بين الكمالين ، فكلها جمل إنشائية استهلها بالقسم المحذوف في " لقد أيقنت " – كما سبق بيانه– ثم توالت الجمل معطوفة على تقدير القسم المحذوف ذاته في كل جملة ، وكأنه قال : لقد أيقنت أن المنى طوع همتي ، و" لقد أيقنت أنى بعطف العامري جدير، و" لقد أيقنت أنى منه للخطوب نذير " ، فهي جمل

عطف بعضها على بعض ، وفي هذا الوصل إيحاء بالثقة الزائدة لدى ابن دراج في أنه سينال بغيته وضالته المنشودة عند ذاك العامري ، وفيه تلميح قوي من الشاعر إلى الممدوح، وكأن لسان حاله يقول له : لقد تركت وخلفت ورائي ما تركت من زوج وولد ووطن ، وتقلبت في غياهب المفاوز والموماة ، ورأيت ما يجعل الولدان شيبا، وأنى قد أكدت لزوجي بكل المؤكدات أنك الأمل المأمول ، والرجاء المرتجى .

وقوله "وأنى بعطف العامري جدير" بيان ناصع لتلك المعاني السابقة ، ويلحظ أنه قدم الجار والمجرور "بعطف العامري" على خبر " أن " " جدير " وفي ذلك لفت قوي للممدوح بأهمية المقدم ؛ لأن المراد هو نيل العطف والإحسان ، وفيه من الإشادة والتعظيم للممدوح ما فيه .

والإضافة "بعطف العامري " تفخيم وتعظيم وهو ما يتلاقى مع السياق والمقام. واصطفاء صيغة المبالغة " جدير " أبرزت ما عليه الشاعر من الثقة الزائدة في عطف الممدوح عليه .وقوله " وأَنِّي بِذِكرَاهُ لِهَمِّيَ زَاجِرٌ" أي أن الشاعر يزيل همومه ويزجرها بذكره الممدوح ،وفي ذلك ما فيه من إبراز مكانة الممدوح لدى الشاعر. وإضافة ضمير الممدوح في قوله " بذكراه " تشريف وتبجيل .

وقوله " لهمي زاجر " تعبير جيد ففيه تصوير للهم بدابة جموح ، لا يكبح جماحها سوى ذكر الممدوح ، وأحسب لهذا القول من ابن دراج أنه يكون به قد بلغ المدى في مدحه المنصور بن عامر، فإذا كان بذكر الممدوح فحسب ينزجر همه ، فكيف بسخاء وعطاء وجود الممدوح عليه؟!!!

هذا وقد ورد القول على طريق الاستعارة المكنية حيث شبه الهم بدابة جامحة وحذف المشبه به وأبقى شيئا من لوازمه وهو الزجر. وبذا يتجلى لنا كيف أفرغ الشاعر على الصورة البيانية تلك من فيض حسه وروحه ، وحرصه على نيل رضا الممدوح. وفي التعبير بصيغة اسم الفاعل " زاجر " دلالة على دوام وثبوت

زجر الهموم بتذكر الممدوح ، وبذا تتناغى هذه الصيغة مع المبالغة والاستعارة المكنية في تصوير ما يعتمل داخل صدر الشاعر.

وقوله " وأنى منه للخطوب نذير" يأتي استكمالا لما بدأه الشاعر من إشادة بالممدوح ، والمعنى: وكأن الشاعر قد نال من الممدوح إكراما جعل الخطوب تخشى ذلك الممدوح الكريم ، ومن ثم يكون الشاعر بمثابة نذير للخطوب مرسل من ممدوحه. وفي ذلك التعبير منه مبالغة تعد غلوا كسابقتها ، فليست ممكنة لا عقلا ولا عادة . ويلحظ على الشاعر اتخاذه من أسلوب الإطناب وسيلة لإفراغ ما لديه من أحاسيس ومشاعر مفعمة تجاه الممدوح ، وثقته الكبيرة في تقريبه ومنادمته .حيث كرر ابن دراج وسائل التوكيد في الجمل الأربع " أن ، وأني ، وأني ، " والتكرار صورة من صور الإطناب يأتي لتأكيد المعاني وتقريرها ، ولعل ذلك التكرار هو جزء مهم للغاية من وراء قصيدته تلك ، فلا نقول هو بيت القصيد بل جزء مهم !

****

المبحث الرابع

مدح الشاعر المنصور بن عامر وقومه الأبيات (٣١-٤٤)

وأَيٌّ فتًـــى للـــدِّينِ والمُلْـــكِ والنَّـــدَى وَتَصْـــدِيقُ ظَـــنِّ الـــرَّاغِبِينَ نَـــزُورُ
مُجِيـرُ الهُـدَى والـدِّينِ مِـنْ كُـلِّ مُلْحِـدٍ ولـــيسَ عَلَيـــهِ لِلضَّـــلَالِ مُجِـــيرُ
تلاقَـــتْ عليـــهِ مـــن تَميـــمٍ ويَعْـــرُبٍ شُـــموسٌ تَـــلَالَا فـــي العُـــلَا وبُـــدُورُ
مـــنَ الحِمْيَرِيِّـــينَ الَّـــذينَ أَكُفُّهُـــمْ سَـحَائِبُ تَهْمِـي(١) بالنَّـدَى وبُحُـورُ
ذَوُو دُوَلِ المُلْـكِ الَّـذي سَـلَفَتْ بِهَـا لَهُـــمْ أَعْصُـــرٌ مَوْصُـــولَةٌ ودُهُـــورُ
لَهُـــمْ بَـــذَلَ الـــدَّهْرُ الأَبِـــيُّ قِيـــادَهُ وَهُـــمْ سَـــكَنُوا الأَيَّـــامَ وَهْـــيَ نَفُـــورُ
وهُـــمْ ضَـــرَبُوا الآفـــاقَ شـــرقاً ومغرِبـــاً بِجَمْـــعٍ يَســـيرُ النَّصْـــرُ حَيْـــثُ يَسِـــيرُ
وهُـــمْ يَسْتَقِـــلُّونَ الحيـــاةَ لِرَاغِـــبٍ ويَسْتَصْـــغِرُونَ الخَطْـــبَ وَهْـــوَ كَبِيـــرُ
وهُـــمْ نَصَـــرُوا حِـــزْبَ النُّبُـــوَّةِ والهُـــدَى ولـــيسَ لَهـــا فـــي العالَمِيـــنَ نَصِيـــرُ
وهُـــمْ صَدَّقُـــوا بـــالوَحْيِ لَمَّـــا أَتَاهُـــمُ ومـــا النَّـــاسُ إلا عَانِـــدٌ وكَفُـــورُ
مناقِـبُ يَعْيَـا الوَصْـفُ عَـنْ كُنْـهِ قَـدْرِهَا ويَرْجِـعُ عَنْهَـا الـوَهْمُ وَهْـوَ حَسِـيرُ
أَلا كُـــلُّ مَـــدْحٍ عَـــنْ مَـــدَاكَ مُقَصِّـــرٌ وكُـــلُّ رَجَـــاءٍ فـــي سِـــوَاكَ غُـــرُورُ
تَمَلَّيْـتَ هـذا العيـدَ عِـدَّةَ أَعْصُـرٍ تُوَالِيـــكَ مِنْـــهَا أَنْعُـــمٌ وحُبُـــورُ
ولا فَقَـــدَتْ أَيَّامـــكَ الغُـــرَّ أَنْفُـــسٌ حياتُـــكَ أَعْيَـــادٌ لَهُـــمْ وَسُـــرورُ

هنا يحط الشاعر رحاله لدى باب الممدوح بل بين يديه ، ويبدأ الركن الركين والرئيس في القصيدة ، وهو امتداحه المنصور وقومه، فيستهل مدحه بقوله:

وأَيٌّ فتًـــى للـــدِّينِ والمُلْـــكِ والنَّـــدَى وَتَصْـــدِيقُ ظَـــنِّ الـــرَّاغِبِينَ نَـــزُورُ

(١) تصب بغزارة .السابق(همى).

مُجِيـرُ الهُـدَى والـدِّينِ مِـنْ كُـلِّ مُلْحِـدٍ ولـــيسَ عَلَيـــهِ لِلضَّـــلَالِ مُجِـــيرُ

حيث وصل ابن دراج جملة الاستفهام " وأي فتى...." بالبيتين السابقين :

لَقَـدْ أَيْقَنَـتْ أَنَّ المُـنَى طَـوْعُ هِمَّتِـي وأَنِّـــي بِعَطْـــفِ العَامِـــرِيِّ جَدِيـــرُ

وأَنِّـــي بِذِكـــرَاهُ لِهَمِّـــيَ زَاجِـــرٌ وَأَنِّـــي مِنْـــهُ لِلخُطُـــوبِ نَذِيـــرُ

وذلك للتوسط بين الكمالين فالجمل كلها إنشائية لفظا ومعنى ، وإن اختلف نوع الإنشاء فيما بينها ، فهذا الاستفهام " طلبي " أما قوله " لقد أيقنت.....البيت " فقسم محذوف " غير طلبي ".

ويكشف الاستفهام عن معاني التعظيم، والإجلال، والإشادة، والتقدير، والمدح ، والفخر، ولعل هذا التعدد في معاني الاستفهام راجع إلى "أن المعنى الذي يفيده الاستفهام خفي وسانح ومتفلت ، وأننا نحاول السيطرة عليه بمثل هذه الأوصاف الكثيرة الناقصة التي نتوهم أنها تحيط به ، ولكنها لا تستخرج منه إلا بعض إشاراته ، أو لا تصف منه إلا ما يظهر ، وترى ذلك كثيرا في الأساليب الثرية والسياقات الحية"(١).

ولا ينبغي إغفال دور التنوين في" فتىً " حيث أضفي مزيدا من معاني التبجيل والتعظيم والإشادة الخ.

والتقديم في "للدِّينِ والمُلْكِ والنَّدَى وَتَصْدِيقُ ظَنِّ الرَّاغِبِينَ" على قوله " نزور " كشف عن التعجيل بالمسرة والإشادة والتعظيم ، وهو ما يخرج ومعاني الاستفهام السابقة من مشكاة واحدة. ونلحظ من الشاعر متابعة واعية ودقيقة من خلال ترتيب تلك المعطوفات ، حيث بدأ بالدين ، ثم بالملك ، فالندى، فتصديق ظن الراغبين .

أما تقديم الدين فذاك هو الأصل ، فلا خير في مدح أو إشادة لا يكون

(١) دلالات التراكيب دراسة بلاغية ، د/ محمد أبو موسى : ٢١٨ – مكتبة وهبة – ط ثانية – ١٤٠٨هـ –١٩٨٧م.

الدين في طليعتها ، لاسيما والقصيدة في مستهل القرن الخامس الهجري ، فلم يفصلها عن عصر النبوة والصحابة والخلفاء الراشدين سوى أربعة أجيال فحسب ثم ثنى بالملك في إشارة قوية وواضحة بأن ملك ابن عامر قد أسس على الدين ، ثم عطف ثالثا بالندى ، ومن صَلُبَ دينه وعضد ملكه صارت كفه أندى العالمين بطون راح ،أما عطفه " وَتَصْدِيقُ ظَنِّ الرَّاغِبِينَ" فإنما هو متفرع عن الندى، ولا بأس من أن يكون لونا من الإطناب من باب ذكر الخاص بعد العام ، فالندى عام يشمل جميع المناحي ، ومنها تصديق ظن الراغبين . وبذا يكون ابن دراج امتدح ابن عامر بالكرم مرتين ، وأن شاعرنا كان حريصا بأمر هذا الخاص ، وهو "تَصْدِيقُ ظَنِّ الرَّاغِبِينَ ".وفي التعبير نفسه تلميح قوي من الشاعر إلى الممدوح ، وكأنه لا يعنى إلا نفسه في هذا القول.

ومجيء "الواو" بين تلك المفردات " الدين ، الملك ، الندى ،تصديق ظن الراغبين " أوحى بكمال الممدوح في كل واحدة منها . وإيثار التعبير بالمصدر " تصديق " يؤكد ويقرر ذلك الجود والكرم .وفي مجيء الفعل " نزور " بصيغة الجمع ، مع أن المتكلم واحد مفرد ، فيه إشارة قوية أن ذلك الممدوح صار كعبة للقصاد ، فمن ناحية الدين تارة ، والملك تارة أخرى ، والندى والكرم كذلك.

وقوله :

مُجِيرُ الهُدَى والدِّينِ مِنْ كُلِّ مُلْحِدٍ وليسَ عَلَيهِ لِلضَّلَالِ مُجِيرُ

فصل عن سابقه لكمال الاتصال ، فالبيت يعد بيانا وتوضيحا للبيت السابق وأول ما يسترعى الانتباه حذف المسند إليه والتقدير :هو مجير، والسر هو تعيين المسند إليه حيث إن القرينة واضحة في الكلام على حذفه، بحيث لا ينصرف ذهن السامع إلا إليه من أول وهلة ، وذلك كله باد من سياق الكلام، وهذا ما يشبه في

الدلالة على الحذف في قوله تعالى" كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ"(١) فالمحذوف معروف بداهة أنها الروح ، وكذلك في هذا المقام.

هذا وقد ساق ابن دراج قوله "مُجِيرُ الهُدَى والدِّين ِمِنْ كُلّ ِمُلْحِدٍ" على طريق الاستعارة التصريحية التبعية ، حيث شبه دفاع الممدوح المستميت عن الهدى والدين بالإجارة ، ثم اشتق من الإجارة اسم الفاعل "مجير" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية . وقد أماطت الاستعارة اللثام عن مدى حرص ودفاع ابن عامر عن الهدى والدين. وإيثار لفظ " كل " التي دلت على الإحاطة والشمول للملحدين أجمعين يؤكد صلابة وقوة ذلك الدفاع.

وفي تقديم " الهدى "على " الدين " لمحة من لمحات ابن دراج الذكية ، حيث إن الهداية تسبق الدخول في الدين.

والإضافة في " كل ملحد " توبيخ وتقريع وتهكم بالملحدين قاطبة ،وتتآزر الإضافة وتتناغى مع معاني الإشادة والدفاع عن الهدى والدين للممدوح .

وقوله في الشطر الثاني من هذا البيت" وليسَ عَلَيهِ لِلضَّلَال ِمُجِيرُ" أي كما أنه حام ومدافع عن الهدى والدين ، هو في الوقت نفسه ليس هناك ما يعوقه أو يمنعه في محاربة الضلال والقضاء عليه.

وقد بدا جليا طباق السلب بين شطري البيت ، حيث أثبت في الأول الإجارة ، ونفاها في الثاني ، وتبرز المفارقة من خلال ذلك الطباق في أن الشاعر امتدح ابن عامر مرتين ، مرة بأنه مجير للهدى والدين " بالإيجاب " ومرة أخرى بأنه ليس عليه مجير للضلال "بالسلب".

كما ترى لونا بديعيا آخر هو رد العجز على الصدر بين " مجير " في أول البيت ، و"مجير" في آخره ، وكان هذان اللفظان متجانسين. وبطباق السلب ورد

(١) سورة القيامة : ٢٦.

العجز على الصدر تسمع الموسيقى وقد سرت في أوصال البيت وأحدثت تناغيا وتناغما. وفي تقديم خبر ليس المنفي " عليه " على اسمها " مجير " أسلوب قصر حيث قصر نفي وجود مانع يمنع الممدوح عن محاربته وقضائه على الضلال ، وهو قصر موصوف على صفة قصرا حقيقيا.وبعد فراغ الشاعر من هذين البيتين في مدح شخص ابن عامر – وقد جمع فيهما وأوعى – شرع في مدح نسب وحسب الممدوح فقال:

تلاقَتْ عليهِ من تَميمٍ ويَعْرُبٍ شُموسٌ تَلَالَا في العُلَا وبُدُورُ

مِنَ الحِمْيَرِيِّينَ الَّذينَ أَكُفُّهُمْ سَحَائِبُ تَهْمِي بالنَّدَى وبُحُورُ

وكأن الشاعر يقول إن هذا السؤدد الذي يرفل فيه ممدوحه من حمايته للدين من أعدائه على وجه العموم ، ومن الملاحدة على وجه الخصوص ، وأنه ممن " وهب نفسه للملك الذي أرسى قواعده ورفع عماده بعد أن تهاوت دعائم الملك الأموي في الأندلس ، كما كان فتى العطاء والكرم فلا يكذب ظن الراغبين ، بل يحقق آمال القاصدين، وهو في ذلك يصدر عن خلق عربي أصيل ورثه من أجداده العرب الأقحاح من الحميريين واليمنيين "(١).

وتأمل قوله " تلاقت " وكيف أبان الفعل بمادته وصيغته عن مدى التجانس والانسجام بين أخلاق الممدوح وصفات آبائه وأجداده.

والتنوين في "تَميمٍ"و"يَعْرُبٍ" يوحى بارتفاع نغمة الفخر والمديح.

وعلى سبيل التجريد يجرد الشاعر من تميم ويعرب شموسا وبدورا تتلألأ في العلا في بث مزيد من دفقات المدح المتوالية المتواثبة ، واصطفاء صيغة الجمع في كل من"شموس"و"بدور"دلالة على كثرة الآباء والأجداد الذين علا ذكرهم ولمعت نجومهم .

(١) ابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد :٢٧١.

وقوله " في العلا " يعد إيغالا من الشاعر، إذ المعنى الذي أمه وهو تلألؤ الشموس والبدور قد تم، لكنه تواؤما وتناغيا للمبالغة في المدح قال " في العلا" . وفي قوله" تلالا" حذف لحرف التاء ، مع حذف للهمزتين ، وبدونهما تكون الكلمة " تتلألأ" لكن ذلك – مع تعارضه مع الوزن– يذهب بموسيقى البيت عرض الحائط ، ولعل في حذف التاء ما يوحى بسرعة الشاعر في تداعى مدحه ، وكأن نطق حرف التاء كان سيعيقه أو يؤخره عن ذلك فحذفه .

وقوله:

مِنَ الحِمْيَرِيِّينَ الَّذينَ أَكُفُّهُمْ سَحَائِبُ تَهْمِي بالنَّدَى وبُحُورُ

فصل عن سابقه لكمال الاتصال فهو بمثابة عطف البيان من متبوعه " البيت السابق" في إعادة الإيضاح ، فحيث كان في البيت الأول نوع خفاء ، والسياق والمقام يقتضيان إزالته ، جاء البيت الثاني – هنا– بمثابة الإيضاح والبيان. وبذا يكون الشاعر قد صاغ قوله في صورتين : الخفاء والبيان ، ليجمع بين عطاء كل ، فيكون أرسى وأجدى "(١) ولِمَ لا والمقام مقام مدح وإشادة.

وقوله " الَّذينَ أَكُفُّهُمْ سَحَائِبُ تَهْمِي بالنَّدَى وبُحُورُ " تعريف للمسند إليه بالموصول تعظيما وتبجيلا لهؤلاء الحميريين آل الممدوح.

واصطفاء صيغة الجمع في" أكفهم " دل على التكثير والتعظيم ، وانظر كيف صور ابن دراج كرم ممدوحه بطريق التشبيه حيث شبه أكف الممدوح في عطائها وسخائها المتدفق في قوله "أَكُفُّهُمْ سَحَائِبُ تَهْمِي بالنَّدَى وبُحُورُ" شبهها بالسحائب ، وبالبحر،والتعبير بـ " تهمي" أفصح عن كثرة وغزارة الجود والسخاء ، ففي اللسان : تهمي : تصب(٢) وكأن الكرم من هؤلاء يصب على الناس صبا ،

(١) انظر حاشية السيد على الكشاف : ٨٦/١، والإيضاح : ٣/ ٤٧.

(٢) مادة : "همى " .

وفي ذلك من المبالغة ما فيه .

وقوله:

ذَوُو دُوَلِ المُلْكِ الَّذي سَلَفَتْ بِهَا لَهُمْ أَعْصُرٌ مَوْصُولَةٌ ودُهُورُ

فصل عن سابقه لكمال الاتصال– كما مر في الموضع السابق – فمازالت الإيضاحات بذوي الممدوح تترى. وفي البيت حذف للمسند إليه ، تقديره : هم ذوو دول الملك ،وقد حذف ؛لأنه كان متعينا إذ لا ينصرف ذهن السامع إلا إليه. وفي قوله " ذوو دول الملك " تتابعت إضافتان أفادتا التعظيم والتفخيم، واصطفاء صيغة الجمع في " دول " في غاية التآخي والتآذر مع الإضافة.

وتعريف المسند بالموصول " الذي سَلَفَتْ بِهَا....البيت" أفصح عن شيوع واشتهار مضمون جملة الصلة ، وأنها أصبحت أمرا معلوما بين الناس ، وأنها مما يجب انشغال الناس بمضمونها . وبذا تجد اعتلاقا بينا بين مفاد الإضافة ، والتعريف بالموصول في الكشف عن مكانة هؤلاء وحظوتهم.

وقوله "سَلَفَتْ بِهَا لَهُمْ أَعْصُرٌ مَوْصُولَةٌ ودُهُورُ" كناية عن استحقاق وثبات ملك تلك الدولة للممدوح ابن عامر ، فهو لم يكن في مكانته تلك وملكه ذاك بمحض المصادفة أو رمية من غير رام ، إنما توارث هذا الملك كابرا عن كابر عن طريق تلك الأعصر والدهور الموصولة.

ويمكن أن يكون في القول مجاز عقلي علاقته الزمانية ، فإن الأعصر والدهور الموصولة لا تحمى ملكا ولا تحمى شيئا، إنما الذين حافظوا على تلك الدولة إنما هم الملوك أجداد ابن عامر ، وفي ذلك إيماء خفي بعظم ذلك الملك الذي تآذرت فيه الأزمان والعصور مع الملوك والأمراء في المحافظة عليه.

وقد أبان هذا المجاز عن عبء وثقل حمل تلك الأمانة وفي ذلك انعكاس لمضمون يحكى أن أولئك أجداد ابن عامر قد أبلوا بلاء حسنا في ذلك ، وأن ابن

عامر ليس إلا لبنة في صرح أولئك الأجداد الأفذاذ ، وأنه على منوالهم سائر وماض.

ثم يقول:

لَهُمْ بَذَلَ الدَّهْرُ الأَبِيُّ قِيادَهُ وَهُمْ سَكَنُوا الأَيَّامَ وَهْيَ نَفُورُ
وهُمْ ضَرَبُوا الآفاقَ شرقاً ومغرِباً بِجَمْعٍ يَسيرُ النَّصْرُ حَيْثُ يَسِيرُ
وهُمْ يَسْتَقِلُّونَ الحياةَ لِرَاغِبٍ ويَسْتَصْغِرُونَ الخَطْبَ وَهْوَ كَبِيرُ
وهُمْ نَصَرُوا حِزْبَ النُّبُوَّةِ والهُدَى ولَيسَ لَهَا في العالَمِينَ نَصِيرُ
وهُمْ صَدَّقُوا بالوَحْيِ لَمَّا أَتَاهُمُ وما النَّاسُ إلا عَانِدٌ وكَفُورُ
مناقِبُ يَعْيَا الوَصْفُ عَنْ كُنْهِ قَدْرِهَا ويَرْجِعُ عَنْهَا الوَهْمُ وَهْوَ حَسِيرُ

لم نزل نستقبل أمواج المديح من ابن دراج إلى ممدوحه ،إذ يمدح آباء وأجداد ابن عامر فيقول :

لَهُمْ بَذَلَ الدَّهْرُ الأَبِيُّ قِيادَهُ وَهُمْ سَكَنُوا الأَيَّامَ وَهْيَ نَفُورُ

تجد الشاعر قد استهل قوله بـ " اللام " وقد أفادت معنى الاستحقاق،(١) فهؤلاء الممدوحون هم المستحقون دون غيرهم أن يبذل الدهر لهم قياده .

ويتآزر القصر بطريق التقديم مع معنى " اللام" ، والمعنى : لهؤلاء فحسب فعل الدهر لهم ما فعل.

والاستعارة المكنية في "بَذَلَ الدَّهْرُ الأَبِيّ قِيادَهُ" تصوير بارع في هذا المقام ، فالدهر الأبي يستعصى على أي أحد إلا هؤلاء ، وإثبات لازم المشبه به " بذل " للمشبه استعارة تخييلية أوحت بأن الدهر فعل مع هؤلاء ما لم يخطر على

(١) وقد عرفت بأنها " الواقعة بين معنى وذات مثل الحمد لله، والعزة لله" : مغنى اللبيب : ٢٠٨/١.

بال. ووصف الدهر بـ " الأبي " يتواءم ويتآزر مع الاستعارة .

وقوله:" وَهُمْ سَكَنُوا الأَيَّامَ وَهْيَ نَفُورُ" كناية عن القوة والسيطرة والإحكام ، والجملة الحالية " وَهْيَ نَفُورُ"احتراس يسهم في تقوية المدح لأولئك الذين أحكموا قبضتهم على الملك والأيام رغم أن طبيعة الأيام التقلب والاضطراب

وتلحظ في البيت تكرار حرف " الهاء " خمس مرات فأضفي جوا من الموسيقى الداخلية ، وفي إيثار تكرار ذلك الحرف مع النظر في مخرجه وهو أقصى الحلق ،إشارة إلى أن بذل الدهر قياده للمدوحين قد بلغ أقصى الغايات والهمم .

وقد وصل بين هذه الأبيات جميعها للتوسط بين الكمالين فكلها جمل خبرية عطفت على مثيلاتها ، علاوة على وحدة الغرض والمعنى .

ثم يقول:

وهُمْ ضَرَبُوا الآفاقَ شرقاً ومغرِباً بِجَمْعٍ يَسيرُ النَّصْرُ حَيْثُ يَسِيرُ

هذا البيت برمته كناية عن طول باعهم في الحروب وانتصاراتهم فيها، وإيثار التعبير بالماضي " ضربوا " تأكيد لمعنى الكناية وتقرير له ، وكذلك صيغة الجمع " الآفاق".

والطباق بين" شرقا ومغربا " أبرز مدى التباعد بين الجهتين ، ومن ثم يشد من أزر معاني القوة والشجاعة لهم .

والتنكير في " بجمع " مكن الشاعر في أن يصفه بقوله "يَسيرُ النَّصْرُ حَيْث يَسِيرُ" وفي ذلك مبالغة حسنة أوحت وكأن الله – جل في علاه – جعل النصر ملازما لجيوش هؤلاء ، فكلما سار إلى موقعة ما سار النصر معه ،فأي تأييد لقوم حصل مثل ما حصل لهؤلاء؟!

وتكرار الفعل " يسير " أكد المعنى وقرره ، علاوة على ما أحدثه من موسيقى داخلية للبيت ، وقد كرر ابن دراج في هذا البيت – أيضا– حرف "الراء"

ست مرات ، إحداثا وحرصا على موسيقى البيت.

ولقد جسد الشاعر النصر تجسيدا عن طريق الكناية عن نسبة يجعل النصر يسير في ركابه وقد زادت الكناية هنا المعاني قوة وتأكيدا.

وقوله :

وهُمْ يَسْتَقِلُّونَ الحياةَ لِرَاغِبٍ ويَسْتَصْغِرُونَ الخَطْبَ وَهْوَ كَبِيرُ

بنى الشاعر بيته هذا على مقابلة فريدة ، ففي الشطر الأول وسمهم بأنهم – مع تملكهم الآفاق شرقا ومغربا – لا يحفلون بالحياة الدنيا ولا يأبهون لها ،فهم دائمو استقلال الحياة لمن يرغب فيها ، وفي الشطر الثاني وصفهم بالصبر الجميل في تحملهم المصاب الجلل.

وتأمل الدقة التعبيرية لابن دراج حيث اصطفي هذين الفعلين " يستقلون " و " يستصغرون" بصيغة المضارع ليعلن أن هذه المناقب لم تحدث منهم مرة أو مرتين ، بل يستمرون في تخلقهم بتلك الخلال ، فهي منهم في تجدد واستمرار.

والحق أن تلك المقابلة – مع ربطها أجزاء البيت بعضه ببعض – قد أضفت على الكلام رونقا وتماسكا وقوت الصلة بين الألفاظ والمعاني ، علاوة على أنها وضحت وأكدت الفكرة التي أمها ابن دراج، ألا وهى زهد وسمو أخلاق ممدوحيه ، وتلمح الإيجاز بالحذف في أول الشطر الثاني من البيت في قوله "ويَسْتَصْغِرُونَ الخَطْب َوَهْو َكَبِيرُ" إذ حذف الضمير " هم " على غرار ذكره في أول البيت ، وفي الحذف إشارة إلى إسراعه بوصفهم بما وصفهم به ، ولدلالة المذكور على المحذوف.

والجملة الحالية " وَهْوَ كَبِيرُ" تعد احتراسا بديعا يتعاضد مع معنى البيت ويؤكده. والطباق بين " يَسْتَصْغِرُونَ" و" كبير " كان له دوره في إبراز المعنى وتقريره ، فمع كون الخطب كبير ، إلا أنهم يستصغرونه صبرا وتجلدا.

وقوله:

وهُمْ نَصَرُوا حِزْبَ النُّبُوَّةِ والهُدَى وليسَ لَها في العالَمِينَ نَصِيرُ

الشطر الأول من البيت كناية قوية إلى الأصل الذي ينتمي إليه الممدوح ، فأهله هم المسلمون الأول أبو بكر، وعمر، وعلي ، وعثمان – رضي الله عنهم جميعا – وسائر الصحابة والتابعين ، إذا لم يكن كذلك ، فمن إذاً الذي نصر النبي– صلى الله عليه وسلم– من الناس حين عز النصير سوى هؤلاء، ويزيد تلك المعاني تأكيدا البيت الذي يليه حيث قوله :

وهُمْ صَدَّقُوا بالوَحْيِ لَمَّا أَتَاهُمُ وما النَّاسُ إلا عَانِدٌ وكَفُورُ

والتعبير بالماضي " نصروا " دلالة على التأكيد وتحقق الوقوع ، وإيثار التعبير بـ "حِزْبَ النُّبُوَّةِ والهُدَى" إشارة خفية إلى الحزب الآخر، حزب الصد والكفر والعناد، فهم برجاحة عقولهم واستحقاقهم الهدى من الله ،لم يكن منهم سوى الانحياز إلى نصرة النبوة والهدى .

وإضافة التشريف في" حزب النبوة" تتواءم ومعاني البيت. وفي عطف "الهدى " على "النبوة" تأكيد على أن إتباع النبوة إنما هو إتباع لطريق الهدى والنور ، فبينهما ما بينهما من تلازم وتوافق .والشطر الثاني " وليسَ لَها في العالَمِين نَصِيرُ" احتراس يؤكد ويقرر رجحان عقول هؤلاء ، فمع علمهم عدم وجود نصير لتلك الدعوة إلا أنهم لبوا النداء ونصروها وآزروها .

وقوله:

وهُمْ صَدَّقُوا بالوَحْيِ لَمَّا أَتَاهُمُ وما النَّاسُ إلا عَانِدٌ وكَفُورُ

يكاد يكون تكرارا لمعنى البيت السابق مع اختلاف ألفاظه ، ويمكن أن نأخذ على شاعرنا ابن دراج أنه قدم بيتا على بيت، وكان ينبغي أن يكون العكس ، فالبدهي أن يأتي أولا التصديق بالوحي ، ثم يأتي لاحقا نصرة حزب النبوة.

والشاعر في هذا البيت لم يزل يطرق على رجحان عقول ممدوحيه ، فبمجرد أن أتاهم الوحي صدقوا به، رغم أن جل الناس – سواهم – عاند وكفور، فهم ذوو رأي وعقل وليسوا إمعة يتبعون كل صائح وكل ناعق ، وكأننا بابن دراج يسقط كل تلك الصفات والخلال على ممدوحه . وقوله "وما النَّاسُ إلا عَانِدٌ وكَفُورُ" قصر حقيقي ادعائي مبني على المبالغة ، فإذا كان الناس ليسوا إلا عاند وكفور ، ثم يصدق هؤلاء بالوحي فذلك إشادة بهم ما بعدها إشادة ، وفيه – أيضا– إبراز لقيمة توقيت إسلامهم ، حيث حصل مع كثرة المعاندين والصادين والكافرين. وبعد اتخاذ الشاعر طريق الإطناب مطية في تعداد صفات ومناقب أهل ممدوحه من الآباء والأجداد سلك طريق الإيجاز فقال:

مناقِبُ يَعْيَا الوَصْفُ عَنْ كُنْهِ قَدْرِهَا ويَرْجِعُ عَنْهَا الوَهْمُ وَهْوَ حَسِيرُ

فهو إيجاز قصر إذ يحوى العديد من المعاني التي لخصها وأوجزها هذا البيت . وفي البيت حذف للمسند إليه تقديره " هي مناقب " وبذا جمع الشاعر في بيته بين نوعي الإيجاز قصر وحذف ، وذلك مما يحسب للشاعر من قدرة وتحكم على سلطان البيان.

والتنكير في " مناقب " أتاح له بالوصف التالي " يَعْيَا الوَصْفُ عَن كُنْهِ قَدْرِهَا.... البيت" وفي التعبير استعارة مكنية ، وفي ذلك إشارة قوية لما كان عليه آل الممدوح من جميل الصفات وعظيم السجايا ، تلك التي يعجز الوصف نفسه عن إدراك حقيقة قدرها، والإضافة في " كنه قدرها "تعظيم وإشادة تقرر المعاني وتؤكدها .

وقوله" ويَرْجِعُ عَنْهَا الوَهْمُ وَهْوَ حَسِيرُ" جاء موصولا بالشطر الأول من البيت للتوسط بين الكمالين ، والمعاني متآزرة ومتآخية ، وفي القول نفسه مبالغة تصل إلى درجة الغلو ؛ فكون الوهم الذي لا حد له يرجع عن الوصول إلى شأو تلك

المناقب ، فذاك هو الأمر غير الممكن لا في العقل ولا في العادة.

وقد صيغت تلك المبالغة بطرق الاستعارة بالكناية فزادت المعنى قوة ورسوخا . والجملة الحالية "وَهْوَ حَسِيرُ " تعد تتميما ،فقد وردت تلك العبارة بعد تمام الكلام "ويَرْجِعُ عَنْهَا الوَهْمُ" لكنها أبانت عن المبالغة في ذلك إذ لا يرجع الوهم إلا وهو حسير عن عجزه وتقصيره ، وقد زاد من أسر وقوة تلك المبالغة صوغ هذه العبارة بطرق الاستعارة المكنية ، إذ شبه الوهم بإنسان وخلع عليه تلك الصفة.

وفي القول كذلك اقتباس من قوله تعالى "يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ"(١) وقد وفق فيه إلى حد بعيد ،حيث طابق مقتضى الحال الذي سيق من أجله ، فمناقب هؤلاء لا حصر لها ولا لقدرها، وأن الوهم يعود بحسراته إذا رام الوصول إلى مثلها.

ومما يلفت النظر ويسترعى الانتباه فيما ساقه ابن دراج من مديح عرمرم أنه أكثر من الإشادة والحفاوة بصفات الكرم والجود ، وإشارته إلى استدرار عطف المنصور بن عامر من قبيل قوله "وأني بعطف العامري جدير " و" أني بذكراه لهمي زاجر " و" أني منه للخطوب نذير " و" أي فتى للدين والملك والندى " و" تصديق ظن الراغبين" و" أكفهم سحائب تهمي بالندى وبحور " و" هم يستقلون الحياة لراغب " وأحسب أن الشاعر في مديحه بمثل تلك المعاني – معاني السخاء والبذل والعطاء – والإكثار منها إنما يداعب ويطمئن نوازع نفسه بأنه لن يحرم من مردود ذكر تلك المعاني السخية التي أفاضها على ممدوحه ، كما أنها توقفنا على ملحظ مهم ألا وهو الملاءمة القوية بين السياق والمقام ، وهل البلاغة إلا مطابقة الكلام لمقتضى الحال ؟!

ثم يقول :

---

(١) سورة الملك من الآية :٤.

ألا كُلُّ مَدْحٍ عَنْ مَدَاكَ مُقَصِّرٌ وكلُّ رجاءٍ فِي سِواكَ غُرُورُ

لوحظ على الشاعر سوق أبياته السابقة بطريق الغيبة ، ثم التفت هنا بطريق الخطاب ؛ وذلك لجلب مزيد من إصغاء المنصور تجاه ما يقول ويمدح .

وتجدر الإشارة إلى أن ابن دراج قد ذكر قبل بيته هذا ثلاثة عشر بيتا جميعها في مدح العامري وقومه ، ثم يشعرنا وكأنه استقل ما امتدح به في جانب مدى الممدوح الفسيح الذي لا حد له ، بل بالغ في ذلك فأدخل مع تقصير مدحه تقصير كل مدح ، فكل مدح مقصر عن مدى ابن عامر ، والحق فهي مبالغة مقبولة في مثل هذه السياقات المفعمة بالتأثر الشديد تجاه الممدوحين .

والملفت في هذه المبالغة أن ابن دراج قد كان فيها مجيدا أيما إجادة حين اصطفي هذه الأداة " ألا " مصدرا بها مبالغته تلك وهو في هذا السياق ذي الحس الطاغي ، والشعور المفعم بالإعجاب بخلال الممدوح وصفاته ؛ حيث أفرغ شاعرنا من خلال هذه الأداة تدفق مشاعره الجياشة تجاه تلك المآثر ، ويلفت انتباه من يسمع ويوقظه ، بل ويحثه على المشاركة الوجدانية والانفعال لتجربته ، وبذا يكون الشعر قاسما مشتركا بين المبدع والمتلقي .

ولأن إعجاب الشاعر بما للممدوح من سؤدد كان عظيما ، وحاجته الماسة إلى عطاء الممدوح كان أعظم احتاج إلى رفع وامتداد صوته ، فكانت " ألا " في متناوله حيث " هي من المقاطع الصوتية المفتوحة التي ترسل الصوت في امتداد متسع "(١) وكأنه لم يرد إسماع الممدوح بما يمدحه به ، بل أراد أن يسمع مدحه الدنيا بأسرها.

وقد بنى الشاعر مبالغته على الاستعارة المكنية بتشبيه المدح بإنسان مقصر ، ولا ينبغي إغفال دور التنوين في قوله " مدحٍ "و" مقصرٌ " حيث أسهم في

(١) دلالات التراكيب : ٢٦٢.

إضفاء مزيد من معاني الإطراء والتبجيل للمدوح ، وهذا ما يتواءم وبيت القصيد .

ويأتي قوله "وكُلُّ رَجَاءٍ في سِوَاكَ غُرُورُ" موصولا بسابقه لما بينهما من لحمة وارتباط وثيق من حيث المعنى ، ومن حيث اتفاق الجملتين في الخبرية ، وقوله ذاك يعد منه مبالغة ، ولكنها غير مقبولة بل تصل إلى حد الغلو ، فالرجاء في سوى الله هو عين الغرور ، وقد يوصل صاحبه إلى الكفر عياذا بالله .

وبذا يكون ابن دراج جمع في بيت واحد بين مبالغتين إحداهما مقبولة والأخرى غير مقبولة ، وأحسب أن تلك مقدرة بيانية تستعصي على كثير من الشعراء سوى شاعرنا.

وكما جمع في بيت واحد بين مبالغتين ، جمع بين إضافتين ، الأولى في قوله " كل مدح " والثانية " كل رجاء " وتتناغى الإضافتان في البوح عما في الفؤاد ، وهذا كله تحقيق لمعاني المدح والإطراء ، تحقيقا يشير إلى الإحساس العميق بها لدى ابن دراج .

ولم يخل البيت من موسيقى داخلية تواءمت مع المعاني المتدفقة ، وذلك من خلال تكرار حرف " الكاف " في البيت أربع مرات .

وقوله:

تَمَلَّيْتَ هذا العيدَ عِدَّةَ أَعْصُرٍ تُوَالِيكَ مِنْهَا أَنْعُمٌ وحُبُورُ

فصل عن سابقه لكمال الانقطاع بلا إيهام ؛ وذلك لاختلاف الجملتين في الخبرية والإنشائية، إذ كان البيت السابق خبريا لفظا ومعنى ، أما هذا البيت فهو خبري لفظا إنشائي معنى ، إذ يدعو الشاعر لممدوحه بعيشه متمتعا بهذا العيد عدة أعصر... فبين البيتين تباين تام، وانقطاع كامل مما استوجب الفصل بينهما.

وفي الفصل لاختلاف الجمل بين الخبرية والإنشائية – لاسيما في مثل تلك السياقات – استثارة للذهن ، ولفت للانتباه .

وفي قوله "عدة أعصر" كناية أفصحت عن دعاء الشاعر لممدوحه بالعيش زمنا طويلا في متعة وحبور. وقوله " تُوَالِيكَ مِنْها أَنْعُمٌ وحُبُورُ" استعارة مكنية رائعة إذ شبه الأعصر بإنسان ، وقد جسدت وشخصت المعنويات لتكون موالية ومرسلة النعيم والسعادة للممدوح .

وفي اصطفاء صيغتي جمع التكسير للكثرة " أفعل " في قوله "أعصر" و" أنعم " إشارة إلى ما للممدوح من مكانة لدى الشاعر ، حتى أنه يُكَثِّرُ له فيما يسعده وينعمه.

وقوله :

ولا فَقَدَتْ أَيَّامكَ الغُرَّ أَنْفُسٌ حياتُكَ أَعْيَادٌ لَهُمْ وَسُرورُ

موصول بسابقه لما بينهما من اتفاق ، فالجملتان خبريتان لفظا إنشائيتان معنى ، وأبان الوصل حرص الشاعر في الوصول في مدحه إلى منتهاه ، فلم يكتف بدعوة واحدة للممدوح بل وصلها بدعوة أخرى .

ومما يلحظ أن الشاعر آثر في هذين البيتين بناءهما على أسلوب الخبر المراد به الإنشاء إظهارا للتفاؤل ببث السعادة والسرور وإدخالهما قلب المخاطب وذلك ما يتواءم والمقام الذي يقف فيه الشاعر فهو يمدح المنصور ابن عامر .

وقدم المفعول به على الفاعل في قوله " ولا فَقَدَتْ أَيَّامَكَ الغُرَّ أَنْفُسٌ"؛ لأن في التأخير إخلال بالنظم ، علاوة على أن تأخير الفاعل مكنه من وصفه بقوله: "حياتُكَ أَعْيَادٌ لَهُمْ وَسُرورُ".

والإضافة في قوله " أيامك " تفخيم وتعظيم للأيام ، والوصف في قوله " الغر " أتى مؤكدا ومقررا لمعنى الإضافة. كما احتوى البيت على مبالغة تتواءم ومعنى البيت ، إذ جعل الشاعر أيام الممدوح أعيادا وسرورا لرعيته وطالبي نداه .

****

المبحث الخامس

تتويج الممدوح بأعماله المجيدة وبطولاته الفريدة. الأبيات(٤٥-٥٦)

فيقول :

ولَمَّـــا تَوَافَـــوْا للسَّـــلامِ ورُفِّعَـــتُ ... عن الشمسِ في أُفْقِ الشُّروقِ سُتُورُ

وقَـدْ قَـامَ مِـنْ زُرْقِ الأَسِنَّـةِ دُونَهَـا ... صفوفٌ ومن بِيْضِ السُّيُوفِ سُطُورُ

رَأَوْا طَاعَـةَ الـرَّحْمَنِ كَيْـفَ اعْتِزَازُهَـا ... وآيـاتِ صُنْـعِ اللَّـهِ كيـفَ تُنِيـرُ

وكَيـفَ اسْـتَوى بـالبحرِ والبَـدْرِ مَجْلِسٌ ... وقَـامَ بِعِـبْءِ الرَّاسِيَـاتِ سَرِيـرُ(١)

فَسَـارُوا عِجَـالاً والقُلُـوبُ خَوَافِـقٌ ... وأُدْنُوا بِطَاءَ والنَّوَاظِرُ صُورُ(٢)

يَقُولُـونَ وَالإِجْـلَالُ يُخْـرِسُ أَلْسُنَـاً ... وحـازَتْ عُيـونٌ مِلْأَهَـا وصُـدُورُ

لَقَـدْ حَـاطَ أَعْـلَامَ الهُـدَى بِـكَ حَـائِطٌ ... وَقَـدَّرَ فيـكَ المَـكْرُمَاتِ قَدِيـرُ

مُقِيمٌ عَلَى بَذْلِ الرَّغَائِبِ(٣) واللُّهَى(٤) ... وفِكـرُكَ فـي أَقْـصَى الـبِلَادِ يسيـرُ

وأَيْـنَ انْتَـوى فَـلُّ(٥) الضَّـلَالَةِ فَـانْتَهَى ... وأَيـنَ جُيُـوشُ المسلِمِيـنَ تُغِيـرُ

وحَسْبُكَ مِنْ خَفْضِ النَّعِيمِ(٦) مُعَيِّدَا(٧) ... جِهَازٌ(٨) إِلى أَرْضِ العِدَى ونَفِيرُ

فَقُـدْهَا إِلـى الأَعْـدَاءِ شُـعْثَاً كَأَنَّهَـا ... أَرَاقِمُ(٩) فِي شُمِّ الرُّبَى وصُقُورُ

فَعَزْمُـكَ بِالنَّصْـرِ العَزِيـزِ مُخَبِّـرٌ ... وسَعْـدُكَ بِالفَتْـحِ المُبِيـنِ بَشِيـرُ

---

(١) الملك والنعمة .اللسان(سرر).

(٢) صاره يصوره ويصيره : أماله ، أي نواظرهم مائلة .السابق(صور).

(٣) العطاء الكثير. السابق(رغب).

(٤) أفضل العطاء وأجزله. السابق(لها).

(٥) الفل: المنهزمون ، وفل القوم يفلهم فلا : هزمهم فانفلوا وتفللوا .السابق (فلل).

(٦) لين العيش وسعته .السابق(خفض).

(٧) يقال هو معيد لهذا الشيء ،أي مطيق له لأنه قد اعتاده . السابق(عيد).

(٨) الجهاز هو ما يتكلفه الإنسان في تجهيز الشيء كجيش وعروس نحوه .السابق(جهز).

(٩) الأرقم من الحيات هو أخبثها .السابق(رقم).

ها قد توج الشاعر ممدوحه ببيان وصوله إلى قمة المهابة في عيون أوليائه وأعدائه معا ثمرة وحصادا لأعماله المجيدة ، وبطولاته الفريدة ، ومواقفه الرشيدة التي حاطته فيها عناية الله وتوفيقه جزاء وفاقا لطاعته له ، وثقة به ، واعتماده عليه ، وقد أشار الشاعر إلى ذلك كله من خلال" ما ساقه من الأبيات السابقة(١)

وابن دراج من خلال ما أورده من أبيات هنا يصف بعض الوفود الذين قدموا على المنصور من داخل البلاد لتهنئته بنصره المتتابع ، ومن خارجها حيث كان بعض ملوك الفرنج يفدون على قرطبة زائرين مذعنين للمنصور بالطاعة والخضوع ، فيستقبلهم استقبالا رائعا فخما تصطف فيه جنوده وعساكره برياتهم وأسنتهم الزرقاء ، وسيوفهم البيضاء مما يصيب أولئك الوافدين بالانبهار الشديد فيسيرون بين الصفوف عجلين ، وقلوبهم خافقة ونواظرهم مائلة ، وألسنتهم من الإجلال معقودة ، وعيونهم من المهابة مملوءة ، وصدورهم من الإكبار مفعمة ، وما كان ذلك في حقيقة الأمر وواقعه إلا بفضل صيانة الله وحفظه وكريم تقديره بعد أن وهب المنصور نفسه لدينه ونصرته والدفاع عنه"(٢)

وبالتأمل في الأبيات السابقة نجد ابن دراج حشد فيها ما حشد من الصور البلاغية ، إذ استهل أبياته بأسلوب الشرط " ولَمَّا تَوَافَوْا للسَّلامِ ورُفِّعَتْ...رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ ... الأبيات" وقد صدر الشرط بـ " لما " الحينية ، وفي صياغة الأبيات على الشرط وجوابه ما يضفي على معناه من الصدق والتأكيد ما يضفي ، علاوة على ما فيه من إحكام وقوة بنيان فيكون كلوحة واحدة متآزرة.

وقوله" ورُفِّعَت عن الشمسِ في أُفْقِ الشُّروقِ سُتُورُ" كناية عن الزمن

(١) ينظر:ابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد :٢٧٢.

(٢) ابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد :٢٧٢.

الدقيق الذي بدأت تتوالى فيه الوفود ، فالكناية أفصحت بأنه وقت الضحى بعيد شروق الشمس . والتعبير بالمجهول" رُفِّعَت" أوحى بعظم ذلك الفعل ، ومن ذا الذي يفعل ذلك سوى الله القادر جل وعلا؟!والإضافة في قوله " أفق الشروق" كشفت عن دقة تحديد الزمان ، وهذا ما يتواءم وما أفادته الكناية.

وقوله:

وقَدْ قَامَ مِنْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ دُونَهَا صفوفٌ ومن بِيْضِ السُّيُوفِ سُطُورُ

لم يزل ابن دراج يصف لنا ذلك اللقاء البهي والمهيب ، ففي ذلك الجو المشمس بشروق الشمس قد اصطفت عساكر المنصور وجنوده حاملين أسنتهم الزرقاء، وهناك من اصطف يحمل السيوف البيضاء اللامعة كأنها سطور لامعة واضحة . فالأسنة الزرقاء على هيئة صفوف ، والسيوف البيضاء على هيئة سطور ، وهاتان الهيئتان ألقت من الروعة والمهابة في قلوب المجتمعين من الوفود فبدلت حالهم من حال إلى حال.

وجمع الشاعر في بيته بين كنايتين الأولى في قوله " زرق الأسنة " وهو كناية عن حدتها وجلائها، والثانية " بيض السيوف " وهو كناية عن صلابتها ومضائها ، ومن ذلك قول القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني(١)

فلو طُبِعَتْ بيض السيوف على اسمه مضت وهى في الأغماد في كل مضرب

وفي بيت ابن دراج تدبيج الكناية ، حيث أورد هذين اللونين " زرق الأسنة " و" بيض السيوف" بقصد الكناية ، وهذا ما يتسق والغرض من القصيدة، علاوة على ما يحوى ذكر الألوان المتعددة في مثل تلك المواقف من لفت وانتباه.

وقوله :

..... عن الشمسِ في أُفْقِ الشُّروقِ سُتُورُ

(١) التذكرة السعدية ، محمد عبد المجيد العبيدي : ٢١.

وقَــدْ قَــامَ مِــنْ زُرْقِ الأَسِنَّـــةِ دُونَهَــا صـفوفٌ ومـن بِـيْضِ السُّـيُوفِ سُـطُورُ

اعتراض طويل بين الشرط والجواب ، أبرز به الشاعر حرصه الشديد على رسم لوحة فنية متكاملة مهيبة تليق بجلال الممدوح ، ومن ثم تلقى بالروع والمهابة في قلوب وعيون الوفود ، وهو ما سيصرح به ابن دراج في مستهل جواب الشرط ، ومجيء الاعتراض بين الشرط والجواب ما يشير إلى المتابعة الواعية من الشاعر.

وقوله:

رَأَوْا طَاعَةَ الرَّحْمَنِ كَيْفَ اعْتِزَازُهَا وآياتِ صُنْـعِ اللَّـهِ كيفَ تُنِيرُ

وكَيفَ اسْتَوى بالبحرِ والبَدْرِ مَجْلِسٌ وقامَ بِعِبْءِ الرَّاسِيَاتِ سَرِيرُ

هذان البيتان احتويا على جواب الشرط السابق ؛ فتلك الوفود لما رأت ما رأته أيقنت ما يمكن أن تفعله طاعة الرحمن من عز ورفعة للمطيع ، وكما قيل" ليس من راء كمن سمعا "(١) فهاهم يرون ذلك رأي العين .

وأتت " كيف "في قوله "كَيْفَ اعْتِزَازُهَا" بيانا لكيفية اعتزاز الطاعة بصاحبها . وتأمل الإضافة في قوله"طَاعَةَ الرَّحْمَنِ" وما بثته من معاني الطمأنينة والراحة والسعادة .

وقوله" وآياتِ صُنْعِ اللَّـهِ كيفَ تُنِيرُ" وصل بسابقه للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الخبرية لفظا ومعنى.

وقد حذف المسند إليه والمسند معا في قوله"وآياتِ صُنْعِ اللَّـهِ كيفَ تُنِيرُ" إذ تقدير الكلام " ورأوا آياتِ صُنْعِ اللَّـهِ كيفَ تُنِيرُ" وفي الحذف إيجاز تنزها عن العبث ، وقد دل الفعل " رأوا " في أول البيت على المحذوف.

وقوله" وآياتِ صُنْعِ اللَّـهِ " كناية عما مضى ذكره آنفا من الشمس وإشراقها ، ومن جند مصفوفة تحمل زرق الأسنة ، وأخرى تحمل بيض السيوف ، ومن ممدوح

(١) سبق تخريجه في ص: ٣٧ من البحث .

تهيأت له كل تلك الأمور. واصطفاء صيغة الجمع " آيات" ما يشي بتلك الكناية. والإضافة في " صُنْعِ اللَّهِ" كشفت عن إحكام الصانع جل وعلا وفيها ما فيها من التشريف . والتعبير بـ "كيف " أبان عن تلك الإنارة .

وفي الكلام حذف للمفعول تقديره " تنير الدنيا ، أو الكون " وقد يفيد هنا الاختصار والإيجاز ، وقد يفيد التعميم مع الإيجاز ، وقد يفيد أيضا المحافظة على الوزن والقافية ، ولا مشاحة في أنه يفيد كل ما سبق ، فنكات البلاغة تتزاحم ولا تتعارض.

وقوله:

وكَيفَ اسْتَوى بالبحر ِوالبَدْر ِمَجْلِسٌ وقامَ بِعِبْءِ الرَّاسِيَات ِسَرِيرُ

وصل بسابقه للتوسط بين الكمالين ، وأوحى هذا الوصل بوحدة المعاني فالكلام كله لحمة واحدة في بيان واستكناه جواب الشرط.

وتأمل المبالغة الحسنة الرائعة تلك التي خرجت من رحم الكناية في قوله" وكَيفَ اسْتَوى بالبحرِ والبَدْرِ مَجْلِسٌ" فالشاعر يكنى عن ممدوحه بالبحر والبدر في الكرم والجود والبهاء والضياء وعلوه عمن سواه.

وقد حسنت تلك المبالغة في جمعه بين متباعدين، إذ البحر في الأرض والبدر في السماء، إلا أن مجلسا واحدا جمع بينهما، وهذا من خيالات الشعراء التي بها يحلق شعرهم في سماء الإحسان والخلود .

والتنكير في" مجلس " للتفخيم والتعظيم ، وأتى "التنوين" فيه مقويا ومقررا هذين المعنيين.

وقوله" وقامَ بِعِبْءِ الرَّاسِيَاتِ سَرِيرُ" تجد الشاعر فيه قد اتكأ على أسلوب الاستعارة حيث شبه الممدوح بالبحر في العطاء، وبالبدر في الرفعة والبهاء، على طريق الاستعارة التصريحية الأصلية.

وفي القول مجاز مرسل علاقته المحلية ، حيث أورد الشاعر المحل" سرير" وأراد الحال به " الممدوح " فسمى الحال باسم محله مجازا مرسلا، وفي العدول عن الحقيقة إلى المجاز في هذا المقام إبراز مهابة ذلك السرير، وفي لسان العرب : أن السرير يعبر به عن الملك والنعمة(١).

والإضافة في قوله" عبء الراسيات" أفصحت عن ثقل تلك الأمانة ، أمانة الحكم والمحافظة على دولة الخلافة.

واصطفاء كلمة "عبء" أبانت بمادتها أيما إبانة عن تلك المعاني. ومما يلفت النظر في هذين البيتين أن الشاعر ذكر" كيف" ثلاث مرات ، وقدرها محذوفة مرتين ، فيمكن القول أنه كررها خمس مرات إذ المقدر كالموجود ، وهذا التكرار له مغزاه وفحواه ، وهو تأكيد وتقرير هذه المعاني .

وقد تنبه العلماء – قديما وحديثا – إلى دقة التكرار ، وقيمته ، ولطف مسلكه ، فذكروا أنه من مقاتل البيان ، وأنه فن دقيق المأخذ ، وأنه من محاسن الفصاحة ، وبينوا مدى الحاجة إليه في الموضع الذي يقتضيه ، وأنه إنما يأتي في الأمور المهمة ، لتثبت وتتقرر"(٢) كما هو الحال هنا مع ابن دراج .

ثم يسلط الشاعر الضوء بعد ذلك على حال الوفود فيقول:

فَسَارُوا عِجَالاً والقُلوبُ خَوَافِقٌ وأُدْنُوا بِطَاءً والنَّوَاظِرُ صُورُ

"الفاء" للتعقيب ، فإنه عقب رؤيتهم ما رأوه صار حالهم هكذا . وقوله"فَسَارُوا عِجَالاً" تصوير دقيق لحال مشيتهم في ذلك الحفل المهيب .

---

(١) مادة :سرر .

(٢) ينظر: الخصائص لابن جني – تحقيق/ محمد على النجار: ١٠١/٣– ط الهيئة المصرية العامة للكتاب – ط ثالثة ١٩٨٨م ، تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصري – تحقيق د / حفنى شرف :٣٧٥– ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٤١٦هـ –١٩٩٥م.

والتعبير بصيغة المبالغة "عجالا" تقرير وتأكيد لما هم عليه من خوف ووجل زلزل كيانهم.

وقوله "والقُلوبُ خَوَافِقٌ" جملة حالية أبانت عن مدى ما نزل بهؤلاء من الرهبة والخوف، واصطفاء صيغة جمع التكسير للكثرة" خوافق" مما يعضد ذلك ويقرره . وقوله"وأُذْنُوا بِطَاءً" قابل به قوله"فَسَارُوا عِجَالاً" فهم في مشيتهم في هذا الموقف المخيف مشوا عجالا مسرعين ، أما حين طلب منهم الدنو والاقتراب من الممدوح بدا البطء منهم خشية وإجلالا وتوقيرا.

وقد كشف أسلوب المقابلة عن حال الاضطراب النفسي ، وحال التناقض التي يعيشها هؤلاء من جراء حضورهم هذا الحفل المهيب ، لاسيما في حضور مثل ذلك الممدوح .

والتعبير بالمبني بالمجهول"وأُذْنُوا" يوحى بأن الإشارة إليهم بالدنو كان مباغتة ومفاجأة ، مما يقوى ويؤازر من معاني التناقض والاضطراب التي يحيونها. وقوله"والنَّوَاظِرُ صُورُ" أي مائلة ، جملة حالية أبانت عن مزيد من معاني القلق والخوف والتوتر ، فالنظر يكون مستويا حال الهدوء والاطمئنان والسكينة ، أما والحال هذه فهم على خوف ووجل فصارت نظراتهم مائلة .

والتنوين في "عجالاً " ، و" خوافقٌ" ، و" بطاءً" يبرز انتشاء ابن دراج وسعادته المفرطة بما عليه حال هؤلاء في ذلك الموقف ، وفي ذلك إعزاز وإكبار للممدوح . ولم يخل البيت من محسن بديعي تمثل في التقسيم فهنا " ساروا عجالا" وهناك " أدنوا بطاء" ، وهنا " والقلوب خوافق " ، وهناك " النواظر صور" وهذا مما يكسب كلمات البيت رواء وعذوبة وسلاسة ، ومعانيه ربطا وتأكيدا وتقريرا.

وبعد أن فرغ ابن دراج من وصف مشيتهم وخوفهم شرع يبرز كلاما قالوه في ذلك الموقف مع الإشارة إلى حالهم أثناء نطقهم ما نطقوا به ، فيقول:

يَقُولُــونَ وَالإِجْــلَالُ يُخْــرِسُ أَلْسُنَــاً وحــازَتْ عُيــونٌ مِلْأَهَــا وصُــدُورُ
لَقَــدْ حَــاطَ أَعْــلَامَ الهُــدَى بِــكَ حَــائِطٌ وَقَــدَّرَ فِيــكَ المَــكْرُمَاتِ قَدِيــرُ

أول ما يلفت النظر في هذين البيتين الجملتان الاعتراضيتان في قوله" وَالإِجْلَالُ يُخْرِسُ أَلْسُنَا وحازَتْ عُيونٌ مِلْأَهَا وصُدُورُ" وقد اعترض بذلك بين قوله" يقولون" ومقول ذلك القول" لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الهُدَى..... البيت" وغرضه من الاعتراض التأكيد على حال فرقهم وتوجسهم، والتأكيد غرض أصيل من أغراض الاعتراض. وتأمل قوله"وَالإِجْلَالُ يُخْرِسُ أَلْسُنَاً" وقد صاغه الشاعر بطريق الاستعارة المكنية إذ شبه الإجلال بإنسان، ويهدف الشاعر من وراء ذلك إلى إبراز سطوة رهبتهم وخوفهم،الأمر الذي جعل ألسنتهم تخرس فلا تكاد تبين ، والمضارع " يخرس" كشف عن تجدد واستمرار ذلك الحال منهم.

والتنكير في "ألسنا" أوحى بالتحقير والازدراء ، مع أن من بين هؤلاء المحقرين بعض ملوك الفرنجة، إلا أن هذا التحقير يقابله ضمنا الرفع من شأو وشأن المنصور ابن عامر، وكأن لسان حاله يقول: إذا ما جمع مجلس من ملوك وأكاسرة وأباطرة فمع وجود المنصور فالكل دونه محقر ومزدرى ،على غرار قول النابغة الذبياني في النعمان بن المنذر: (١)

فإنكَ شمسٌ،والملوكُ كواكبٌ إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ

وقوله : " وحازَتْ عُيُونٌ مِلْأَهَا وصُدُورُ" الجملة الاعتراضية الثانية، ووصلها بسابقتها لما بينهما من توسط بين الكمالين فالجملتان خبريتان لفظا ومعنى. وهذا القول من ابن دراج كناية عن وصول الملك والنعمة والهيبة والإجلال لدى ممدوحه درجة ملأت عيون هؤلاء إعجابا وإجلالا ،وقد أفصح التعبير بالمصدر" ملأها" في

(١) البيت في ديوانه ، شرح حمدو طماس: ٢٠- دار المعرفة – بيروت – لبنان- ط ثانية – ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م .

إبراز ذلك إلى حد كبير. وقوله" وعيون" عطف على سابقه، وفيه إيجاز بالحذف وكأنه أراد أن يقول"وحازَتْ صُدُور مِلْأَهَا كذلك" والسر فيه التنزه عن العبث والمحافظة على الوزن.

وقوله:

لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الهُدَى بِكَ حَائِطٌ وَقَدَّرَ فيكَ المَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

ساق الشاعر هذا البيت على أنه قول بعض الوفود وفيهم ما فيهم من بعض ملوك الفرنجة الذين يزورون المنصور مذعنين له بالطاعة والخضوع. وحيث إن الشاعر أخبرنا قبل هذا البيت بأن ألسنتهم خرست إجلالا ومهابة ، فكيف إذا يورد قولا لهم – إذ نسب إليهم قول ما قالوا – وهم لم يقولوا شيئا ؟! الجواب: أن الشاعر هنا لم يرصد لسان مقالهم ، بل وصف لسان حالهم من جراء ما رأوه ولمسوه من ملك ونعيم ومهابة .

وهذا البيت من ابن دراج يعد في قمة مديحه للمنصور، حيث ساق ما ساقه في ذلك البيت على لسان خصوم وأعداء المنصور، فكأن ما قالوه فيه هو عين الحقيقة والصواب، فكما قيل "والحق ما شهد به الأعداء"، كما يبرز البيت– أيضا – ما لابن دراج من ذكاء وقاد، حيث أورد ما يريد أن يمدح به على لسان أعداء الممدوح ، فيا لها من براعة شعرية ومقدرة على حوك الكلام ونظمه.

أما قوله :

لَقَدْ حَاطَ أَعْلَامَ الهُدَى بِكَ حَائِطٌ وَقَدَّرَ فيكَ المَكْرُمَاتِ قَدِيرُ

فقد استهله الشاعر ب" لام " التأكيد ، ثم أردفها بـ" قد" التي للتحقيق ، وهذا الاستهلال يرمى من ورائه تحقيق وتأكيد ما سيرد بعده.

وقوله"حَاطَ أَعْلَامَ الهُدَى بِكَ حَائِطٌ" كناية عن تثبيت وتوطيد ملك الممدوح، فمادام الذي أحاط هذا الممدوح بأعلام الهدى هو الله – جل في علاه – فملكه

وطيد، كما أن قوله" أعلام الهدى" كناية عن وزراء وقواد ومستشاري المنصور.

والتعبير بالماضي" حاط " تحقيق وتأكيد حصول ذلك، وهو ما يتواءم مع "لام" التأكيد ، و"قد" التي للتحقيق في مستهل البيت.

والتنوين في"حائط" أعانه على إطلاق نغمات الرضا والسعادة والحبو،علاوة على سريان الثقة والطمأنينة بمعية الله – سبحانه – ذلك الذي مَنَّ عليه بتلك الإحاطة. وقوله"وَقَدَّرَ فيكَ المَكْرُمَاتِ قَدِيرُ" موصول بالقول السابق، وهو كناية– أيضا– عن دوام النعمة والسخاء والجود ، فالذي هو فيه من المكرمات تقدير القادر المقتدر . وكما كان في البيت كنايتان ، ففيه أيضا أسلوبا تقديم ، حيث قدم في الشطر الأول من البيت المفعول به" أعلام الهدى" على الفاعل" حائط" وفي ذلك تعجيل بما يسر ويسعد الممدوح ،وفي الشطر الثاني قدم الجار والمجرور" فيك" على متعلقه "المكرمات " وفي ذلك مزيد اختصاص للممدوح بما ناله. وتأمل ما في البيت من موسيقى داخلية في جمع الشاعر في الشطر الأول بين "حاط وحائط" وفي الثاني بين " قدر وقدير".

وقوله:

مُقِيمٌ عَلَى بَذْلِ الرَّغَائِبِ واللُّهَى وفِكْرُكَ في أَقْصَى البِلَادِ يسيرُ

فصل عن سابقه ؛ وذلك لشبه كمال الاتصال ، فالبيت السابق اقتضى سؤالا مؤداه: إذا كانت الوفود بما فيها من خصوم وأعداء للممدوح قالوا في شأنه ما قالوا من إعجاب وإشادة ، فلِمَ قالوا ذلك ؟ فكان هذا البيت بمثابة الإجابة عن ذلك السؤال . وفي الفصل هنا نوع من التنبيه والاستثارة ، فهناك سؤال مقدر ، وتلك إجابة ، وهذا مما يثرى من مدح الشاعر ويؤازره.

وفي قوله" مقيم..." حذف للمسند إليه، إذ التقدير: هو مقيم، وفي الحذف إسراع إلى المطلوب – المدح – بلا تراخ، وكيف يتراخى ابن دراج في مدحه

المنصور، وقد ترك من أجل لقياه الابن الرضيع والزوج الرؤوم، وحارب الفيافي وأهوالها ؟! والتنوين فى" مقيمٌ" أعانه على إطلاق نغمات المح والإشادة. واصطفاء صيغة اسم الفاعل "مقيم" دلالة على الدوام والثبوت، وفي ذلك تقرير وتأكيد لما عليه الممدوح من جود وسخاء.

وإيثار التعبير بالمصدر" بذل " تأكيد فوق تأكيد لمعاني الكرم والسخاء، ومادة المصدر نفسها توحي بتلك المعاني. والإضافة في قوله" بذل الرغائب" للإشادة والتفخيم بالممدوح، وبذلك توحي صيغتي الجمع" الرغائب ، واللهى" بالمعاني ذاتها.

هذا وقد اتخذ ابن دراج من الإطناب سبيلا مع ممدوحه في وصفه إياه بالكرم والسخاء والجود، حيث جمع بين " الرغائب واللهى" فالرغائب تعنى: العطاء الكثير(١) واللهى تعنى: أفضل العطاء وأجزله (٢) وهذا من ذكر الخاص بعد العام وفيه من الإشادة والتفخيم في المدح ما فيه ، إلا أننا لا نعدم ملحظا نفسيا لدى الشاعر فذكر هاتين الكلمتين السابقتين إنما يحكى تلك الرغائب واللهى التي تعتمل في صدره، ويمنى نفسه بالتقلب فيها، والإغداق عليه بها .

وهذا الإطناب من ابن دراج بمثابة توطئة وتمهيد لما سيقوله بعد خمسة أبيات من هذا البيت إذ توجه بمخاطبة المنصور بقوله" غني بجدوى راحتيك....البيت".

ويمكن عد الشطر الأول من البيت " مقيم على بذل الرغائب واللهى" كناية عن الجود والسخاء.

وقوله" وفكرك في أقصى البلاد يسير" كناية عن انشغاله بشئون ملكه ورعيته . وبين قوله" مقيم" وقوله "فكرك" التفات من الغيبة إلى الخطاب ، وفي ذلك

---

(١) اللسان : رغب .

(٢) السابق : لها.

مزيد من اللفت والانتباه.

والإضافة في قوله "وفكرك" تنويه وإشادة بذاك الفكر والانشغال. أما الإضافة في" أقصى البلاد" تكشف عن سعة الملك والسلطان للممدوح . وبين شطري البيت طباق خفي بين" مقيم " وبين " يسير" وكان طباقا خفيا؛ لأن الذي يقابل " مقيم" مسافر، إلا أن ابن دراج لم يجمع بين الإقامة والسفر، بل جمع بين الإقامة وما يتعلق بالسفر وهو" السير". هذا وكان ممن أشار إلى الخفاء في الطباق من القدماء ابن رشيق القيرواني.(١) وقد ورد الطباق عفو الخاطر وبلا تكلف فكان" وفاء بالمعنى ووفاء بالإيقاع"(٢)

وقوله:

وأَيْنَ انْتَوى فَلُّ الضَّلَالَةِ فَانْتَهَى وأَينَ جُيُوشُ المسلِمِينَ تُغِيرُ

وصل بالبيت السابق للتوسط بين الكمالين، وروح الوصل تجرى بين تلك الجمل جريان الدم في العروق ، فالسياق والمقام مدح وإشادة بالممدوح. والشطر الأول من البيت بناه ابن دراج من خلال جملتي الشرط والجواب" وأَيْنَ انْتَوى فَلّ الضَّلَالَةِ فَانْتَهَى" فالمنصور حينما يقصد ويقرر القضاء على الضلالة يصل إلى ما قصد وأراد. والتعبير بالمصدر" فل" يوحى بالقوة والبأس، والإضافة في قوله"فل الضلالة" إشادة وتكريم للممدوح، و"الفاء" في جواب الشرط" فانتهى" أفصحت عن سرعة وصوله إلى مبتغاه في القضاء على الضلالة، علاوة على ما أسكبته على البيت من ربط وتلاؤم فهي الرباط الذي يربط أجزاء المعاني بعضها ببعض. وشطر البيت الأول برمته كناية عن مضاء وعزيمة المنصور وإنفاذها.

---

(١) انظر العمدة تحقيق / محيي الدين عبد الحميد:٩/٢ – ط دار الجيل – د. ت، وينظر: فن البديع / عبد القادر حسين : ٤٧– دار الشروق ط أولى ،١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

(٢) البديع تأصيل وتجديد ، منير سلطان :١١٩– منشأة معارف الإسكندرية ١٩٨٦م.

وقوله " وأين جيوش المسلمين تغير" استفهام أفاد النفي،إذ ينفي ابن دراج وجود مكان تغير عليه جيوش المسلمين في عهد ممدوحه المنصور، وكان هذا المعنى نتيجة طبيعية لمضمون جملة الشرط والجواب في الشطر الأول من البيت ، إذ ترتب على هزيمة الضلالة أنه لا يوجد مجال للحروب والإغارة. والحق فإن هذا القول عطف للإنشاء على الخبر(١)، والإضافة في قوله " جيوش المسلمين" للتعظيم والتفخيم، وفي اصطفاء صيغة الجمع دون الإفراد ما يقوى ويقرر تلك المعاني.

ثم يلتفت الشاعر من الغيبة إلى الخطاب في قوله:

وحَسْبُكَ مِنْ خَفْضِ النَّعِيمِ مُعَيِّدَاً جِهَازٌ إِلى أَرْضِ العِدَى ونَفِيرُ

وفي ذلك الالتفات متابعة واعية من الشاعر ويوحي بحاجته الشديدة من مخاطبه – الممدوح – أن يكون في أوج الإصغاء والتنبيه إليه. ويبالغ ابن دراج كعادته في مدحه المنصور فيخاطبه قائلا: يكفيك سؤددا وفخرا أنك من جراء النعيم الذي ترفل فيه صار من دأبك وعادتك تجهيز الجيوش وإعدادها إلى أرض العدى، وأنه من عادتك وديدنك أيضا قتالك في سبيل الله. وحسب معناه: كاف وهو صفة مشبهة بمعنى اسم الفاعل، أي حاسبك، أي كافيك ما أنت بصدده.

والإضافة في "حسبك" فيها ما فيها من التفخيم والتعظيم والاعتزاز.

---

(١) وإن كان قد منعه البيانيون وابن مالك إلا أن الصفار وجماعة قد أجازوا ذلك ، واستدلوا بقوله تعالى"وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ....الآية" البقرة:٢٥على قوله " وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا....الآية"البقرة:٢٤، ينظر : همع الهوامع:٣/٢٢٥. كما أورد العلامة الطاهر بن عاشور أن ذلك ليس بممنوع وهو كثير في الكلام البليغ، وقد قال تعالى ".....وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ * إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ * وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ * وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ * وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ...الآية" عطف" وَهَلْ أَتَاكَ "على أخبار داود" موجز البلاغة:٢٩– المكتبة العلمية– تونس – ط أولى – د.ت.

وقوله" معيدا" حال من الضمير في " وحسبك" كشف عن مبالغة حسنة بأن ذاك الممدوح بما لديه من لين العيش وسعته صارت عادته تجهيز الجيوش والقتال في سبيل الله. وتقديم الجار والمجرور" من خفض النعيم" على الحال " معيدا" أبان عن كريم المعدن وشريف الخصال ، فإن سعة العيش ولينه مع الملوك والأمراء قد يكون وسيلة للانزلاق في المفاسد ، إلا أن هذا الممدوح كان نسيج وحده فقد جعل لنفسه عادة لا يتركها البتة في تجهيز وإعداد الجيوش والمشاركة في القتال معها، والكناية عن سعة العيش ولينه في قوله" خفض النعيم " صورت تلك الرفاهية في أبهى حلة وأجمل وشي، والتنكير في" جهاز" للتفخيم والتعظيم أبرز قيمة ومكانة هذا الجهاز لدى الشاعر، وأسهم التنوين فيه في تقرير تلك المعاني وتوكيدها. والإضافة في"أرض العدى" أبانت عن القصد إلى الاختصار، فالمقام هنا مع ابن دراج وممدوحه يتطلب الاختصار بسبب ما يسيطر عليه من حالة شعورية تتطلب هذا.

وقوله" ونفير" فيه إيجاز بالحذف حيث حذف المسند، والتقدير: ونفير كذلك؛ وذلك تنزها عن العبث، ومحافظة على الوزن.

وفي قوله:

فَقُدْهَا إِلَى الأَعْدَاءِ شُعْثَاً كَأَنَّهَا أَرَاقِمُ فِي شُمِّ الرُّبَى وصُقُورُ

فَعَزْمُكَ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ مُخَبِّرٌ وسَعْدُكَ بِالفَتْحِ المُبِينِ بَشِيرُ

تجد الشاعر قد استهل بيته الأول بـ " الفاء" التي أفادت التعقيب مع السرعة ، فبعد أن جهز الجيوش يلتمس ابن دراج من ممدوحه أن يقودها إلى الأعداء، وكشف أسلوب الأمر" فقدها" عن ذاك الالتماس ، و"الهاء" في قوله "فقدها" كناية عن الجيوش، وقوله " شعثا" أي: انشر هذه الجيوش نشرا إلى الأعداء، واصطفاء التعبير بالمصدر للتأكيد والحرص على الإرسال بهذه الكيفية وتلك الطريقة.

وقد بنى الشاعر هذا البيت على التصوير البياني من خلال التشبيه المقيد، فالمشبه إرسال الجيوش إلى الأعداء منتشرين ، والمشبه به الحيات الرقماء وهى أخبث الحيات تنتشر في أعالي الجبال، وهو مفرد مقيد أيضا، ووجه الشبه هو الانتشار والدهاء والقوة، وهذه الصورة التشبيهية تسهم في بث الرعب في قلوب الأعداء مما يعجل بالنصر عليهم.

والإضافة في قوله" شم الربى" تنويه وتعظيم للمضاف إليه. وقوله " وصقور" أتى معطوفا على المشبه ، فهو مشبه به آخر، فالشاعر هنا شبه شيئا واحدا بشيئين الأول بالحيات الخبيثة ، والثاني بالصقور في المكان ذاته شم الربى، وفيه حذف للمسند ، إذ التقدير: وصقور كذلك، وفي الحذف تنزه عن العبث، ومحافظة على الوزن والقافية.

وفي إيثار التعبير بأداة التشبيه " كأن " دون سواها إشارة إلى قوة التشبيه، وكأن الجنود فعلا حيات لا تقاوم، وصقور لا تضاهى.

ثم يأتي قوله:

فَعَزْمُكَ بِالنَّصْرِ العَزِيزِ مُخَبِّرٌ وسَعْدُكَ بِالفَتْحِ المُبِينِ بَشِيرُ

وقد استهله بالفاء- أيضا- وقد ربطت الكلام ربطا حتى غدا قطعة واحدة ،وهى هنا للربط والتعقيب، وكأن كل ما سبق من حديث عن اعتياد الممدوح تجهيز الجيوش، وقيادتها على نحو مخصوص إنما يوصل إلى حقيقة أن عزمك هذا مخبر بالنصر العزيز، وأن حسن طالعك مبشر بالفتح المبين.

والإضافة في قوله" فعزمك" للإشادة والتعظيم بهذا العزم القوى. وتقديم الجار والمجرور" بالنصر العزيز" للتعجيل بالمسرة، والحق فإن هذا الشطر من البيت قد صاغه الشاعر على صورة بيانية غاية في الروعة عن طريق الاستعارة المكنية بتشبيه عزم الممدوح بإنسان ،وقد كشفت تلك الاستعارة عن ندرة وعظم عزم

المنصور بن عامر الذي يكاد يخبر بالنصر، وليس أي نصر، بل نعته بالعزيز

وقوله : " وسَعْدُكَ بِالفَتْحِ المُبِينِ بَشِيرُ " تجد فيه أيضا ما وجدته في الشطر الأول ، إذا الإضافة في "سعدك" تنويه وإشادة بحسن طالع ذلك الممدوح، وتقديم الجار والمجرور" بالفتح المبين " تعجيل بالمسرة والبشرى.

وقد صاغ ابن دراج هذا القول عن طريق الاستعارة المكنية حيث شبه "سعد" المنصور بإنسان، وقد أفصحت الاستعارة عن الإشادة بحسن طالع الممدوح، حتى لكأنه يبشر بالفتح والنصر المبين.

وتتجلى براعة الشاعر في اصطفاء مفرداته بعناية فائقة في مثل هذه السياقات الحية الوثابة ، فتأمل" النصر العزيز" و" الفتح المبين" وتأمل " عزمك" هنا، و" سعدك" هناك ، والإخبار، والتبشير كما لا يخفي الاقتباس من القرآن الكريم من سورة الفتح" إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا*.....وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا "(١) وكما ورد في القرآن الكريم" النصر العزيز مجاورا للفتح المبين" جعلهما الشاعر متجاورين في البيت، ولا يقدر على مثل ذلك سوى شاعر حاذق كابن دراج.

وقد كان الشاعر أكثر توفيقا في هذا الاقتباس –لاسيما في تلك الجزئية من القصيدة – حيث إنه طابق مقتضى الحال الذي ساق من أجله القصيدة، وذلك الاقتباس هو تاج المدح ورأس الإشادة.

****

(١) من الآيتين:١،٣.

المبحث السادس

حديث الشاعر عن أبرز صفاته . الأبيات (٥٧-٦٥)

فها هو الشاعر يصل في قصيدته تلك إلى المحطة الأخيرة متوجها بالخطاب إلى ممدوحه المنصور قائلا:

ونادَاكَ يا بْنَ المُنْعِمِينَ ابْنُ عَشْرَةٍ ... وعَبْدٌ لِنُعْمَاكَ الجِسَامِ شَكُورُ
غَنِيٌّ بِجَدْوَى رَاحَتَيْكَ وإِنَّهُ ... إلى سَبَبٍ يُدْنِي رِضَاكَ فَقِيرُ
ومِنْ دُونِ سِتْرَيْ عِفَّتِي وتَجَمُّلِي ... لَرَيْبٌ(١) وصَرْفٌ(٢) لِلزَّمَانِ يَجُورُ
وضَاءَلَ قَدْرِي فِي ذُرَاكَ(٣) عَوَائِقٌ ... جَرَتْ لِيَ بَرْحَاً (٤) والقَضَاءُ عَسِيرُ
وما شَكَرَ "النَّخْعِيُّ" شُكْرِي وَلَا وَفَى ... وفَائِي- إِذْ عَزَّ الوَفَاءُ- " قصيرُ"
فَقُدْنِي لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ ... وَكِلْنِي لِلَيْثِ الغَابِ وَهْوَ هَصُورُ(٥)
فقد تَخْفِضُ الأَسْمَاءُ وَهْيَ سَوَاكِنٌ ... ويَعْمَلُ في الفِعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرُ
وتَنْبُو(٦) الرُّدَيْنِيَاتُ والطُّولُ وَافِرٌ ... ويَنْفُذُ وَقْعُ السَّهْمِ وَهْوَ قَصِيرُ
حَنانَيْكَ في غُفْرَانِ زِلَّةِ تَائِبٍ ... وإِنَّ الَّذِي يَجْرِي بِهِ لَغَفُورُ

نحن أمام شاعر يختتم قصيدته بما يزيح كل العقبات من طريقه إلى

---

(١) الريب : صرف الدهر وحوادثه .اللسان(ريب).

(٢) صرف الدهر: حدثانه ونوائبه .السابق(صرف)

(٣) الذرى بالفتح :كل ما اسستترت به ، يقال :أنا في ظل فلان وفي ذراه، أي في كنفه وستره ودفئه .السابق(ذرا).

(٤) البرح : الشر والعذاب الشديد، وقيل الشدائد ، وقيل كُلفُ المعيشة في مشقة .السابق(برح).

(٥) الهصور :الأسد الشديد الذي يفترس .السابق(هصر).

(٦) نَبا حَدُّ السيفِ إذا لم يَقطع .السابق(نبا).

ممدوحه ، وما ستثير رضا المنصور وأريحيته ليشمله بعطفه ويحوطه بإنعامه(١) فيستهل الشاعر ذلك بقوله:

ونادَاكَ يا بْنَ المُنْعِمِينَ ابْنُ عَشْرَةٍ وعَبْدٌ لِنُعْمَاكَ الجِسَامِ شَكُورُ

هذا البيت والذي بعده بناهما الشاعر على التجريد، الذي يتيح له أن يصول ويجول، ويضفي على نفسه ما يضفي من محاسن ويعبر عن رغباته وتطلعاته . وقوله" ناداك" صاغه الشاعر بصيغة الماضي ليبث مزيدا من التنبيه والتيقظ لمخاطبه، وإلقاء الروعة في قلبه فيصيخ ويستجيب لما يرد بعد ذلك من مآرب ورغائب.

وقوله" يا بن المنعمين" كناية عن إكرام وإنعام المنصور لطالبي نداه ، واصطفاء صيغة" المنعمين" فيه ما فيه من ذكاء وقاد من الشاعر، واستثارة للمخاطب أيما استثارة، فمن ذا الذي يخاطب بـ" يا بن المنعمين" ثم يمنع عطاءه؟!!

ونلحظ من خلال ذلك النداء إجلالا وتوقيرا للمخاطب مما يحسن في مثل هذه المقامات، حيث نزل الشاعر– من خلال ندائه ذاك – القريب منزلة البعيد دلالة على رفعة شأن المنادى وعلو قدره، فهو من تنزيل بعد المنزلة منزلة بعد المكان. وقوله " ابن عشرة " كنى به الشاعر عن نفسه، أي وأنا من المخالطين المعاشرين للناس.

ويلحظ أن قوله"يا بن المنعمين" أتى معترضا به بين قوله " وناداك" وقوله "ابن عشرة" وكشف الاعتراض عن متابعة واعية من الشاعر وبصر جيد للنفوس. كما أفاد تنبيه المخاطب – الممدوح – إلى دلالة وفحوى ما نودي به، كما أبرز عظم ومكانة وسمو الممدوح حسبا ونسبا وكرما وسخاء،وكل ذلك يسهم في تحقيق ما يصبوا إليه الشاعر من ممدوحه.

(١) ابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد :٢٧٢.

وقوله" وعَبْدٌ لِنُعْمَاكَ الجِسَام ِشَكُورُ" وصل بسابقه للتوسط بين الكمالين حيث اتحدت الجملتان في الخبرية لفظا ومعنى، فالأولى ابتدأها بقوله" وناداك" وهو إخبار عن النداء، ومثل ذلك الشطر الثاني ابتدأه أيضا بإخبار عن النداء ولكنه حذفه، تقديره" وناداك عبد.....الخ البيت"، فمن أجل ذلك الاتحاد كان ذلك الوصل. وحذف المسند في قوله" وعبد" والتقدير: وناداك عبد، وأفصح هذا الحذف عن الإسراع إلى المقصود – العطاء – بلا تراخ ، ومحافظة على الوزن، واصطفاء كلمة" عبد"وتنكيرها تحكى تذللا وخضوعا يراه الشاعر مناسبا أيما مناسبة، إذ هو في ساحة العطف والاستجداء، والتنوين في الكلمة نفسها أسهم في إضفاء مزيد من معاني التذلل والاستجداء من ذلك الممدوح، كما أن التنكير في" عبد" مكنه من أن يتبعه بقوله" لنعماك الجسام شكور"، وهذا الوصف يعد ركنا ركينا في استدرار الإنعام من المنصور.

وتقديم الجار والمجرور" لنعماك الجسام" على الصفة" شكور" حرصا على نيل العطاء وتعجيلا في تقديم ما يسر الممدوح.

ووصف قوله" لنعماك" بـ" الجسام" أوحى بترقب وتوقع ما سيمنحه إياه الممدوح من عطاء واسع لا حدود له، كما يكشف عن عظم نعمه المتوقعة. والاعتراض بين الصفة" عبد" وموصوفها " شكور" أبان عن عظم التقدير والاعتداد بنعم الممدوح ما يرفع من أسهم الحث والحض على إعطائه بسخاء. والتعبير بصيغة المبالغة" شكور" من مستتبعات التأكيد – تأكيد حصول الشكر لتلك النعم من الممدوح.

وقوله:

غَنِيٌّ بِجَدَوَى رَاحَتَيْكَ وإِنَّهُ إِلى سَبَبٍ يُدْنِي رِضَاكَ فَقِيرُ

حذف الشاعر المسند إليه، إذ التقدير: هو غني، "والحذف غرض يقصد

إليه الأدباء وأرباب الكلام على اختلاف صناعتهم لما له من ملاحة وطرافة وعظيم الأثر في نفوس السامعين"(١)وغرض الشاعر من الحذف هنا التنزه عن العبث، وقد يكون المسارعة إلى المطلوب بلا تراخ ، وهو إبراز حالته ونفسيته والبوح عن حاجاته. ولا ينبغي إغفال دور التنوين في قوله" غنيٌ" إذ أسهم في إظهار رضا الشاعر وأريحيته في كنف الممدوح.

وقوله : "بِجَدَوَى رَاحَتَيْكَ" صيغ بطريق المجاز المرسل وعلاقته السببية، فراحتا الممدوح هنا مجاز عن السخاء والجود وقد سمي ذاك السخاء وذاك الجود باسم الراحتين؛ وذلك لما بين الراحة والسخاء والعطاء من التعلق، فإن الغنى إنما يظهر سلطانه وكماله في اليد المعطية، وتبدو بلاغة المجاز المرسل هنا في مهارة الشاعر في تخير العلاقة بحيث يكون المجاز مصورا للمعنى المقصود خير تصوير.

وإضافة الراحة إلى ضمير المخاطب في قوله "راحتيك" تشريف وتعظيم. وقوله"وإِنَّهُ إِلى سَبَبٍ يُدْنِي رِضَاكَ فَقِيرُ" وصل بسابقه لما بينهما من لحمة وارتباط وثيق فكلا الجملتين خبريتان لفظا ومعنى.

وهذا القول من ابن دراج بأنه فقير إلى سبب يقربه من رضا الممدوح مبالغة حسنة في مثل هذا السياق والمقام.

وفي الكلام تقديم للجار والمجرور ومتعلقهما على خبر إن " فقير" تعجيل لما يسر المخاطب، ومحافظة على الوزن والقافية، والتنكير في" سبب" مكنه أن يصفه بقوله" يدنى رضاك" ، وفي القول استعارة مكنية، كشفت عن أن ما يحتاجه الشاعر سبب قوي له وقعه ومكانته، والإضافة في" رضاك" للتفخيم والتعظيم. وقد أكد قوله ذاك مؤكدا له بـ"إن واسمية الجملة" وليس في السياق ما يوحى بإنكار

(١) المقاييس البلاغية والنقدية في البيان والتبيين د/ فوزي السيد عبد ربه : ٢٣٥- ط دار الثقافة- ١٩٨٣م.

أو تردد المخاطب – الممدوح – فيما يرمى إليه الشاعر.

والحق أن تأكيد الخبر هنا ليس منظورا فيه إلى حال المخاطب " وإنما ينظر فيه المتكلم إلى حال نفسه ومدى انفعاله بهذه الحقيقة ... وهذا اللون كثير جدا وله مذاقات حسنة "(١) هذا وتجدر الإشارة إلى أن ابن دراج قد بنى هذين البيتين السابقين وما بعدهما على طريق الالتفات ، فهو يتحدث عن نفسه بطريق الغيبة من قبيل قوله" وناداك....ابن عشرة" و" عبد" و"غني" و" إنه إلى سبب" ثم التفت بطريق التكلم فقال:

ومِنْ دُونِ سِتْرَيْ عِفَّتِي وتَجَمُّلِي لَرَيْبٌ وصَرْفٌ لِلزَّمَانِ يَجُورُ

وضَاءَلَ قَدْرِي فِي ذُرَاكَ عَوَائِقٌ جَرَتْ لِيَ بَرْحَاً والقَضَاءُ عَسِيرُ

وفي الالتفات مزيد للتنبيه والإصغاء لاسيما في هذا المقام مقام طلب الندى والعطاء.

وابن دراج ينبري في الحديث عن نفسه فهو ذو سترين عفته وتجمله، ومن دون ستريه هذين تجور عليه حوادث الزمان وتقلباته .

وقد اعتمد على أسلوب الإيضاح بعد الإيهام في قوله" سترى : عفتي وتجملي" وهو من التوشيع حيث إن كلمة " ستري"مثناة وفيها غموض وإبهام ثم أزال الشاعر ذلك الغموض والإبهام بتوضيحه بمفردين " عفتي وتجملي" ، وفي هذا الإيضاح بعد الإبهام اعتداد صارخ بتلك الخصلتين اللتين لزمتا الشاعر. وابن دراج حينما وضع ذلك المعنى في قالب الإطناب وضع يدي ممدوحه المنصور بن عامر– ووضع أيدينا كذلك– على إحساسه وانفعاله وطبيعة نفسه الأبية.

وتأمل تتابع الإضافات في قوله" ستري، عفتي، تجملي" وقد كشفت عن

(١) خصائص التراكيب: ٩٥.

قصد الشاعر إلى الإيجاز والاختصار، فهو في مقام يتطلب ذلك بسبب ما يسيطر عليه من حالة شعورية تستدعى الوصول إلى الهدف من أقصر طريق.

والشاعر يصرح هنا بأنه دون عفته وتجمله يلاقى من تقلبات الزمان به ما يلاقى حتى صورها بالجور في قوله" يجور" .

والتعبير بالمضارع يتواءم مع حال الشاعر فظلم الزمان له متجدد ومستمر.

وفي الكلام مجاز عقلي علاقته الزمانية، حيث أسند الجور إلى الزمان، والزمان لا يقع منه جور، وإنما هو زمن لوقوعه، وقيمة المجاز تكمن في المبالغة والإيجاز في الوقت نفسه، كما أنه – كما قال الإمام عبد القاهر– "كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان والاتساع في طرق البيان"(١)

ثم تجد ابن دراج وكأنه يعتذر للممدوح من عدم تنعمه في كنفه وستره ودفئه بعوائق منعته عن ذلك فيقول:

وضَاءَلَ قَدْرِي في ذُرَاكَ عَوَائِقٌ جَرَتْ لِيَ بَرْحَاً والقَضَاءُ عَسِيرُ

هذا البيت وصل بسابقه للتوسط بين الكمالين، وتأمل الدقة التعبيرية في قوله" ضاءل" وهى تحكى مدى وضاعة مكانة الشاعر حينما حالت بينه وبين لقائه بممدوحه العوائق ، وكأنه يقول من طرف خفي من وراء هذا البيت،إن تضاؤل قدري كان بسبب تلك العوائق ، وها هي قد زالت برؤيتي إياك، والوقوف بين يديك مادحا، فليس أمامك سوى أن ترفع قدري وتزيل همي وتعطني سؤلي.

وتنكير" عوائق" كشف عن كثرتها، والتنوين فيها يؤكد كثرتها وشدتها، كما أن التنكير أتاح له أن يصفها بقوله " جرت لي برحا"، واصطفاء الشاعر كلمة" برحا" يؤكد شدة وآلام تلك العوائق التي ألمت به، وساهم التنوين فيها في تقوية ذاك

(١) دلائل الإعجاز: ٢١٤.

المعنى وتقريره.

وقوله "والقضاء عسير" تذييل جار مجرى المثل ، فهو بعد تأكيده للمعاني السابقة في البيت ، يعد جملة مفيدة لحكم مستقل عما قبلها جار مجرى المثل. وللتذييل في الكلام موقع جليل ومكان شريف؛ لأن المعنى يزداد به انشراحا والمقصد اتضاحا(١) .

ويسترسل ابن دراج في إبراز صفاته لممدوحه بما يوقظ رضاه عنه ، فيعمه بإنعامه ويحوطه برعايته فيقول:

وما شَكَرَ "النَّخْعِيُّ" شُكْرِي وَلَا وَفي وفَائِي- إِذْ عَزَّ الوَفَاءُ- " قصيرُ"

فالشاعر شاكر لكل من يمد له يد العون والعطاء والمساعدة، وقد بالغ ابن دراج في إظهار مدى شكره، حتى جعل شكره لا يدانيه شكر، حتى أولئكم الذين ضربت بهم الأمثال في الشكر كالنخعي.

فقوله"وما شَكَرَ "النَّخْعِيُّ" شُكْرِي" بناه على التشبيه بالمصدر المنفي، على طريقة تمثيل عدم وصول درجة شكر النخعي المضروب به المثل في الشكر إلى درجة شكره، وهذه الصورة التشبيهية المبنية على التمثيل تزيد من حث الممدوح واستثارته على منح ابن دراج عطاء غير مجذوذ.

وكما اعتمد على تصوير عظم شكره بالتشبيه المنفي، اعتمد أيضا على تصوير شدة وفائه بالطريقة نفسها فقال "وَلَا وَفي وفَائِي- إِذْ عَزّ َالوَفَاءُ- " قصيرُ" وفي ذلك ما فيه من مبالغة حسنة ومقبولة في مثل تلك السياقات الحية المتواثبة.

ويلحظ في تصوير عظم وفائه بالتشبيه المنفي أنه اعترض بين ثنايا تشبيهه بقوله "إِذْ عَزَّ الوَفَاءُ" وأبان الاعتراض عن تفخيم وتعظيم ذلك الوفاء، فهو

(١) كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري – تحقيق الأستاذين/ على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم:٤١٣ –ط دار الفكر العربي– ط ثانية (بدون).

أوفي من "قصير" الذي ضرب به المثل في الوفاء ، رغم أن الوفاء كان من العزة والندرة بمكان.

ثم يذكر الشاعر لممدوحه صفات أخرى له تستأهل تقريبه والرضا عنه ، فيقول:

فَقُدْنِي لِكَشْفِ الخَطْبِ والخَطْبُ مُعْضِلٌ وَكِلْنِي لِلَيْثِ الغَابِ وَهْوَ هَصُورُ(١)

في الشطر الأول يصف نفسه بالذكاء الوقاد الذي يمكنه من حل المعضلات الشائكة، وفي الشطر الثاني وصف نفسه بالشجاع المقدام الذي لا يأبه ملاقاة أسد الغاب الشديدة المفترسة، وما على الممدوح إلا أن يختبره ويبلوه.

وتأمل "الفاء" في قوله " فقدنى" حيث كانت " المعبر الذي ينزلق عليه القول من باب من أبواب المعنى إلى باب آخر"(٢)، والأمر" قدني" التماس إلى ممدوحه ،واصطفاء مادة ذلك الفعل أوحت بمدى تذلل وخضوع الشاعر للمنصور، فهو سلس القياد مع ممدوحه.

والتعبير بالمصدر" لكشف الخطب " يوحى بالثقة الزائدة في حله وكشفه للمعضلات.، وقوله " والخطب معضل" تذييل يؤكد مضمون الجملة الأولى وهو غير جار مجرى المثل؛ وذلك لعدم استقلاله بإفادة المراد وتوقفه على ما قبله.

وقوله "وَكِلْنِي لِلَيْثِ الغَابِ وَهْوَ هَصُورُ" وصل بسابقه للتوسط بين الكمالين لاتفاق الجملتين في الإنشائية لفظا ومعنى.

والأمر" كلنى" التماس من الشاعر لممدوحه بفعل ذلك به، كما أوحت مادة الفعل بمدى الاستسلام والخضوع للممدوح.

والإضافة في" لليث الغاب" للتهويل والتفظيع، والجملة الحالية "وَهْوَ هَصُورُ"

---

(١) الهصور :الأسد الشديد الذي يفترس .السابق(هصر).

(٢) قراءة في الأدب القديم : ٤٦.

كناية أفصحت عن شدة وبأس افتراس ذلك الأسد لمن أمامه، والإضافة والكناية تقرران وتؤكدان ما على الشاعر من شجاعة وإقدام، وفي كل ما سبق حث وحض للممدوح كى يرضى عن الشاعر ويجزل له العطاء ويدنيه منه.

ثم يقول ابن دراج:

فقد تَخْفِضُ الأَسْمَاءُ وَهْيَ سَوَاكِنٌ ويَعْمَلُ في الفِعْلِ الصَّحِيحِ ضَمِيرُ
وتَنْبُو الرُّدَيْنِيَاتُ والطُّولُ وَافِرٌ ويَنْفُذُ وَقْعُ السَّهْمِ وَهْوَ قَصِيرُ

من خلال هذين البيتين السابقين يسوق الشاعر أدلة تؤكد حقيقة للممدوح مؤداها أنه ينبغي عليه أن يثق في الشاعر،وفي أخلاقه، وصفاته ،وقدراته ، فهو الشاكر شكرا، والوفي وفاء فاق بهما من ضربت بهم الأمثال في الشكر والوفاء، وهو أيضا ذكي وشجاع، وليس على الممدوح الاستهانة بشاعره في أنه لا يستطيع فعل أشياء كثيرة، ثم يسوق هذين البيتين ليؤكد تلك الحقيقة، ففي قوله"فقد تَخْفِضُ الأَسْمَاءُ وَهْيَ سَوَاكِنٌ" تجد " الفاء" فيه للتفريع حيث إن هذا الكلام متفرع عما قبله ،وهو تعليل لما سبقه ، وكأن سائلا سأل لماذا لا تثق أيها الممدوح في شاعرك مهما ظننت فيه من عدم القدرة والاستطاعة ، فكان التعليل بهذه الفاء بأنه قد تخفض الأسماء وهى سواكن ...البيتين" فما قبل فاء التفريع علة لما بعدها(١).

و" قد" للتوقع ، وقوله"فقد تَخْفِضُ الأَسْمَاءُ وَهْيَ سَوَاكِنٌ" أي وإن كان من غير المتوقع ألا تخفض الأسماء وهى سواكن، فقد يقع ذلك.

وقوله" وهى سواكن" احتراس ؛ فقد يظن أن تخفض الأسماء وهى متحركات، فاحترس لذلك.

وأتى الشطر الثاني موصولا بسابقه للتوسط بين الكمالين، وفي الكلام إيجاز بالحذف، حيث حذف " قد" من أول الشطر الثاني، إذ التقدير" وقد ويَعْمَلُ في الفِعْل

(١) حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك: ١٣٤٨- الشاملة.

الصَّحِيحِ ضَمِيرُ" وفي البيت التالي لهذا البيت ينطبق عليه الكلام نفسه ، حيث حذف " قد" من شطريه في قوله:

وتَنْبُو الرُّدَيْنِيَاتُ والطُّولُ وَافِرِ ويَنْفُذُ وَقْعُ السَّهْمِ وَهْوَ قَصِيرُ

فكأنه قال: " وقد تنبو....." و" قد ينفذ...." وفي الحذف تجنب للتكرار بلا داع، وتنزه عن العبث، حيث إن تقدير المحذوف مما لا يخفي على أحد.

وحيث إن الضمير لا يعمل في الفعل الصحيح ، إلا أن الشاعر يحاول تقريب ما لا يتوقع حصوله .

وتنكير "ضمير" يوحى بالتقليل وهو ما يتواءم والمعنى الذي أمه الشاعر. وكذلك من البدهي أن الرماح الردينية إذا ما كان طولها وافرًا، فهي بالقطع تصيب هدفها،إلا أن الشاعر جعل إمكانية عدم حصول ذلك منها متوقعًا، فقد تنبو تلك الردينيات، والسهم إذا كان قصيرا لا يتوقع منه أن ينفذ في هدفه، إلا أنه هنا مع ابن دراج يقول:أنه يتوقع حصول ذلك.

وقد احتوى هذا البيت على مقابلة بديعة حيث قابل بين نبو الردينيات على وفرة طولها، وبين نفاذ السهم على قصره، وقد أضفت المقابلة على الكلام رونقا وتماسكا ، وقوت الصلة بين الألفاظ والمعاني، علاوة على أنها وضحت الفكرة التي قصدها ابن دراج ، ألا وهو توقع حصول مالا يتوقع حصوله .

والحق فإن المقابلة أسلوب من الأساليب المحببة إلى النفوس حين يقود إليها الطبع، فترد في الكلام سمحة منسابة، ولعل من أسرار حسنها هذا أنها تعين على تجلية الحقائق وإبراز معادنها، كما أن لها تأثيرها في الكلام ذلك الذي يجرى معها دائما، وهذا ما تجده في جمع المتناقضات، وتجاورها وتضاربها في العبارة والنفس من توتر وإثارة .... وهذه الخصوصية تعطى الأسلوب قدرة على الإيقاظ وصيرورة الحس، كأنه يكون مستفزا ومثارا حين يحسب ما وراء هذه المتناقضات

من صراعات وتجاذبات، وهو يثبت على قممها المتغايرة والمتناقضة.(١) وهذا ما عمد إليه ابن دراج، ثم يأتي ختام القصيدة بقوله:

حَنانَيْكَ في غُفْرَانِ زِلَّةِ تَائِبٍ وإِنَّ الَّذِي يَجْرِي بِهِ لَغَفُورُ

قبل النظر في هذا البيت تجدر الإشارة هنا إلى أن ابن رشيق نوه بمختتم القصيدة وأهميته فقال "وأما الانتهاء فهو قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع ، وسبيله أن يكون محكما: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، فإذا كان أول الشعر مفتاحا له وجب أن يكون آخره قفلا عليه"(٢)

هذا ويغلب في خواتيم القصائد أن تكون مدحا أو دعاء ، وكذلك الحال هنا فقد اختتم ابن دراج قصيدته بذاك الدعاء فقال ما قاله – على سبيل التجريد– متوجها إلى ربه متضرعا متذللا.

وقوله" حنانيك" أي: يارب ارحمني رحمة بعد رحمة ، وقيل معناه:كلما كنت في رحمة منك وخير فلا ينقطعن، ولكن موصولا بآخر من رحمتك(٣). فالشاعر يدعو الله أن يرحمه في غفران ذنبه ، والتعبير بالمصدر" غفران" يوحى بأمل الشاعر الكبير في مغفرة زلته، وقوله" زلة تائب" وكأنه يحكى عن شخص آخر فيكون فيها رجاء وتوقعا بالحصول، وكأنه يدعو لغيره بظهر الغيب. وتنكير"زلة" للتحقير، وقوله" وإِنَّ الَّذِي يَجْرِي بِهِ لَغَفُورُ" جاء مؤكدا ليؤكد الحقيقة التي انفعلت بها نفسه، وهو توقع غفران الله – سبحانه – له، وقوله" به" الضمير فيه يعود إلى الغفران فيكون من وضع المضمر موضع المظهر اعتناء بشأنه.

والقول برمته" وإِنَّ الَّذِي يَجْرِي بِهِ لَغَفُورُ" تذييل للشطر الأول، وهو غير

---

(١) ينظر قراءة في الأدب القديم : ٢٨٦– ٢٨٨.

(٢) العمدة :٢٣٩/١.

(٣) لسان العرب: حنن.

جار مجرى المثل، والغرض من ورائه التأكيد على سعة عفو الله – عز وجل – وغفرانه ذنوب عباده، وأتت الصفة المشبهة " لغفور" – بعد تأكيدها بـ"لام" التأكيد – لتقرر المعاني التي رامها الشاعر.

هذا وللعلوي كلام عن حسن الختام يحسن ذكره هنا، حيث قال" وينبغي لكل بليغ أن يختم كلامه في أي مقصد كان بأحسن الخواتيم، فإنها آخر ما يبقى على الأسماع، وربما حفظت من بين سائر الكلام لقرب العهد بها، فلا جرم وقع الاجتهاد في رشاقتها وحلاوتها، وفي قوتها وجزالتها، ..... فالخاتمة في كل شيء هي العمدة في محاسنه، والغاية في كلامه ...."(١)

****

(١) ينظر: كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي: ١٨٣/٣– مطبعة المقتطف بمصر١٣٣٣هـ – ١٩١٤م.

الخاتمة

بعد معايشة ممتعة وشائقة مع ابن دراج في رائيته يمكن القول بأنَّ البحث خلص إلى : أن ابن دراج قد بلغ في شاعريته مبلغا عظيما استحق ما قيل عنه أنه من المقدمين من الشعراء، والمذكورين من البلغاء، وأن شعره يدل على علمه، وأن له طريقة في البلاغة والرسائل تدل على اتساعه وقوته ، وقد تجلى ذلك في مواطن كثيرة من البحث حيث امتلك ابن دراج ثروة لغوية من ذلك على سبيل المثال لا الحصر التعبير بـ "أستنشق النكباء"،و ترتيب ورود ذكر الأفعال مثل إيراده الفعل" تبوأ" قبل "مهدت"(١).

ظهر أثر القرآن الكريم بوضوح في شعره ففي رائيته تلك أورد الكثير من الكلمات القرآنية" نمير، الترائب، يمور، وهو حسير" فقد اقتبس كثيرا منه.

– إن كان البلاغيون أهملوا دراسة الإنشاء غير الطلبي بدعوى قلة المباحث البيانية المتعلقة به، إلا أنه كان لابن دراج – في قصيدته– رأي مغاير،وذلك من خلال تعبيره بالقسم وكشفه العديد من المعاني البلاغية له.

– بدت مقدرته البلاغية في كثير من تعبيراته فقد جمع بين مبالغتين في بيت واحد إحداهما مقبولة والأخرى غلو أو إغراق(٢) وفي ذلك دلالة على تمكنه من ناصية البيان.

ومن دقته التعبيرية ذكره للنصر العزيز والفتح المبين متجاورين في بيت واحد ،كما تجاورا في آيتين متتاليتين في سورة الفتح.

أكثر الشاعر من الصور البيانية فأكثرها ورودا الاستعارة ثم الكناية ثم التشبيه وأقلها المجاز المرسل.

---

(١) ينظر البحث:٢٨.

(٢) السابق:٦١.

– وقد تجلت دقة التصوير عنده في رصد الحركات والسكنات في مشهد خوف من حضر الحفل مع المنصور.

– كما اتكئ كثيراً على أسلوب الفصل والوصل بين الجمل فصنع جواً من التنبيه وشحذ العقول .

– كما لجأ إلى الالتفات في أكثر من موضع ليزيد من لفت وانتباه من يخاطب.

– استعان الشاعر بالإيجاز بنوعيه القصر والحذف، من ذلك جمعه بين نوعي الإيجاز في بيت واحد(١).

–كما استعان بالإطناب في العديد من صوره، الإيضاح بعد الإبهام، وذكر الخاص بعد العام، والتوشيع، والاعتراض، والاحتراس، والتتميم والتكرار، وقد بلغ به التكرار أنه يكرر مفردات بعينها مع تقارب معانيها، فمثلا بيته الذي في رائيته:

وللمَوْتِ في عَيْشِ الجبانِ تَلونٌ وللذُّعْرِ في سمع الجريءِ صَفِيرُ

كرر ما هو قريب من معناه فقال في موضع آخر من ديوانه:

وللموت في نفس الشجاع تخيل وللذعر في عين المخاطر ألوان(٢)

– الإيجاز والإطناب جناحان اعتمد عليهما الشاعر في مشاهد وداع زوجه وطفله.

– كشف البحث عن تبيّن بعض ملامح معجم الشاعر الشعري من خلال :

١ – تأثره بالقرآن الكريم من خلال اقتباساته .

٢– تكرار مفردة بعينها مثل كلمات"عزم، عزمتي، عزمات ، فعزمك"

٣– تكرار جمل حالية متقاربة الوزن من قبيل"وهى نفور"،"وهى تفور"،"وهو

(١) السابق:٥٩، ٦٠.

(٢) ينظر البحث:٤١.

كبير"،"وهو حسير"،"وهو هصور"،"وهو قصير".-اعتمد الشاعر على كثير من الصور البديعية أبرزها الطباق ثم المقابلة، والترديد، والجناس، وحسن الختام.

- برزت دقة الشاعر في انتقاء واصطفاء مفرداته، فقد كان يختار مفردة بعينها دون غيرها التي لها نفس الوزن، ولن تغير في الموسيقى الداخلية للبيت من مثل " أختلس" دون " أستلب" وغير ذلك، وهذا مما يؤكد على شاعرية مفعمة بالشعور ملهمة بالتعبير، فكان قميناً أن يكونك ما قال عنه ابن حزم: لو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن دراج لما تأخر عن شأو حبيب والمتنبي.

" ....وَآخِرِ ُدَعْوَانا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ"

والله الموفِّق

المصادر والمراجع

أولاً : القرآن الكريم

١- الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة :- دار المعارف- ط سابعة ١٩٧٩م.

٢- الإيضاح في علوم البلاغة – الخطيب القزويني- دار إحياء العلوم – بيروت- ط الرابعة، ١٩٩٨.

٣- البديع تأصيل وتجديد، منير سلطان- منشأة معارف الإسكندرية ١٩٨٦م.

٤- تحرير التحبير لابن أبى الإصبع المصري – تحقيق د/ حفني شرف- ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة- ١٤١٦هـ -١٩٩٥م.

٥- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر، لأبى عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي- تحقيق/ محمد بن تاويت الطنجي- ط القاهرة – ١٩٥٣م.

٦- حاشية السيد الشريف على الكشاف-

٧- حاشية الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك: ١٣٤٨.

٨- خصائص التراكيب-دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني/ محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة، ط ٤ ، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٩- الخصائص لابن جني – تحقيق/ محمد على النجار: ١٠١/٣- ط الهيئة ، المصرية العامة للكتاب – ط ثالثة ١٩٨٨م.

١٠- دراسات أدبية د/أحمد هيكل – دار المعارف – ط أولى ١٩٨٠م.

١١- دراسة في البلاغة والشعر/ محمد أبو موسى-مكتبة وهبة – ط أولى- ١٤١١ هـ، ١٩٩١م .

١٢- دلالات التراكيب دراسة بلاغية، د/ محمد أبو موسى – مكتبة وهبة – ط ثانية -١٤٠٨هـ -١٩٨٧م.

١٣- ديوان ابن دراج – نشر المكتب الإسلامي بدمشق – حررها الله من الطغاة- ط أولى -١٣٨١هـ ١٩٦١م.

١٤- ديوان القاسم الشابى -شرح/ أحمد حسن بسج – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان- ط رابعة -١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٥- ديوان كثير عزة- جمع وشرح / إحسان عباس – دار الثقافة- بيروت – لبنان- ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

١٦- ديوان مجنون ليلي- جمع وتحقيق وشرح/ عبد الستار أحمد فراج – دار مصر للطباعة – د. ت .

١٧- ديوان النابغة الذبياني-شرح حمد وطماس- دار المعرفة – بيروت – لبنان- ط ثانية – ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

١٨- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبى الحسن علي بن بسام الشنتريني – تحقيق لجنة من أساتذة آداب القاهرة- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة ١٩٣٩،١٩٤٥م.

١٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي - تحقيق : يوسف علي طويل ، دار الفكر- دمشق ١٩٨٧ م .

٢٠- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم،لأبى القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال – مراجعة / السيد عزت العطار الحسني- ط القاهرة – ١٩٥٥م.

٢١- العمدة في محاسن الشعر ونقده- تحقيق/محيي الدين عبدالحميد- ط دار الجيل -د. ت.

٢٢- الفائق في غريب الحديث للزمخشري -تحقيق : علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة-لبنان- ط ثانية- د. ت .

٢٣- الفروق اللغوية لأبى هلال العسكري- تحقيق وتعليق/ محمد إبراهيم سليم- دار العلم والثقافة الإسلامية للنشر والتوزيع -القاهرة - د. ت .

٢٤- فن البديع/عبد القادر حسين- دار الشروق ط أولى،١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

٢٥- قراءة في الأدب القديم د/ محمد أبو موسى- دار الفكر العربي - ط أولى- د. ت .

٢٦- كتاب أسرار البلاغة للإمام عبد القاهر الجرجاني تحقيق / محمود أحمد شاكر- مطبعة المدني- ط- أولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

٢٧- كتاب دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر الجرجاني - تحقيق : محمد التنجي- دار الكتاب العربي- بيروت- ط أولى -١٩٩٥ م.

٢٨- كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري- تحقيق الأستاذين/على محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم - ط دار الفكر العربي- ط ثانية (بدون)

٢٩- كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ليحيى بن حمزة العلوي- مطبعة المقتطف- بمصر١٣٣٣هـ - ١٩١٤م.

٣٠- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري - تحقيق : عبد الرازق المهدي- دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت .

٣١- لسان العرب لمحمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري- دار صادر- بيروت - ط أولى - د.ت .

٣٢- مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري-

تحقيق / محمد محيى الدين عبد الحميد :١/٤٩- دار المعرفة – بيرو – د.ت .

٣٣- المخصص لأبى الحسن علي بن إسماعيل المعروف بابن سيده – تحقيق/ خليل إبراهيم جفال- دار إحياء التراث العربي- بيروت – ط أولى- ١٤١٧/ ١٩٩٦م .

٣٤- المستدرك على الصحيحين، محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري؛ تحقيق/ مصطفي عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية – بيروت- ط أولى – ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٣٥- المطول لسعد الدين التفتازاني

٣٦- المعجم المفصل في علم الصرف أ/ راجي الأسمر- مراجعة د/ إميل بديع يعقوب- دار الكتب العلمية- بيروت- ط أولى- ١٤١٣ هـ- ١٩٩٣م.

٣٧- المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي – تحقيق د/ شوقي ضيف- ط ثالثة – دار المعارف بمصر .

٣٨- مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام الأنصاري- تحقيق/مازن المبارك، ومحمد علي حمد الله- دار الفكر- بيروت- ط سادسة -١٩٨٥م.

٣٩- المقاييس البلاغية والنقدية في البيان والتبيين د/ فوزي السيد عبد ربه- ط دار الثقافة- ١٩٨٣م.

٤٠- موجز البلاغة للطاهر بن عاشور- المكتبة العلمية- تونس- ط أولى- د.ت.

٤١- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع في علم العربية -تحقيق/عبد الحميد هنداوي – المكتبة التوفيقية – مصر- د. ت.

٤٢- يتيمة الدهر للثعالبي- تحقيق الشيخ/ محمد محيي الدين عبد الحميد- دار المعارف بمصر- ط سابعة ١٩٧٩م.

ثانيا : الرسائل العلمية والدوريات

١. ابن دراج القسطلي ورائيته في ميزان نقدي جديد د/جلال صابر عوض محمد حجازي- بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة – العدد الخامس عشر – ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

٢. الاغتراب في حياة ابن دراج وشعره / روضة بلال عمر المولد- ماجستير بكلية اللغة العربية جامعة أم القرى- ١٤٢٨هـ٢٠٠٧م.

****